حين رأيتُ صوتي

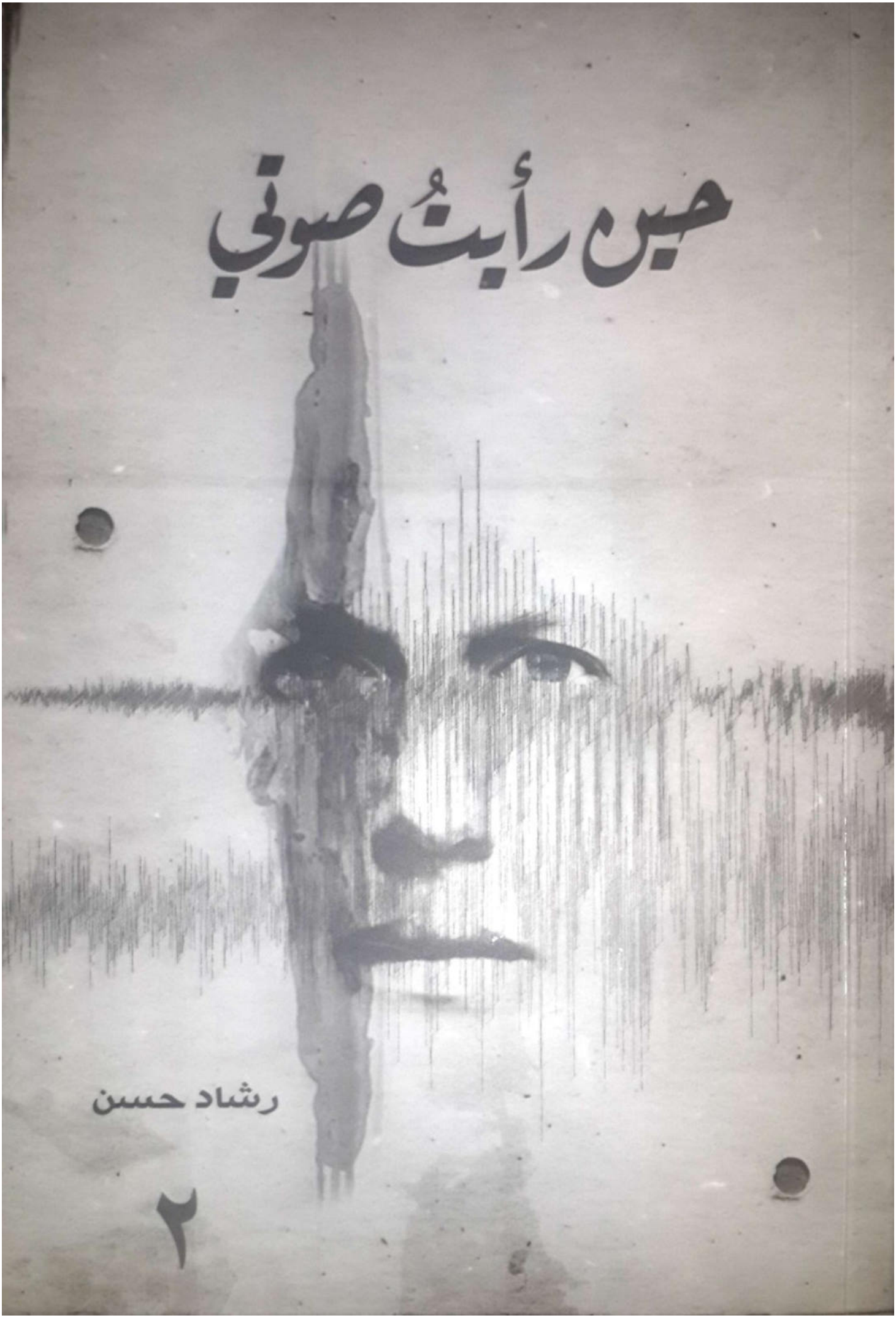

رشاد حسن

٢

حين رأيتُ صوتي

• حين رأيتُ صوتي

• رشاد حسن

Twitter: @watheh1

rashad.hsn@gmail.com

• الطبعة الثانية ٢٠١٥

• فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

• **جميع الحقوق محفوظة للناشر** : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

رقم الإيداع : 1436/2550

ردمك : ISBN: 978-603-01-7291-7

حين رأيتُ صوتي

نَـــصّ

رشاد حسن

يناير ٢٠١٥

إلى **طفلتي** ، التي لم تُخلق بعد
الهاجعة في نيّة لم تخرج إلى الفعل
أسميتك : كندة ،
بالرّجاء أن يليق عليك ، ويسرّك .
أما بعد . .
فهنا صوتي ،
جمعته بداخل هذا الكتاب
كي تتسنّى لكِ رؤيته .

أحبك ، يا ريحانة الله .
. . . . . .والدك .

إفصاح

. . . ذات مرة ، زارني صمتٌ كثيف . . حتى أحسستُ بأني لم أعد قادرًا على الكلام ، وحين ذهبت لصديقي أشكو إليه ، كنتُ أبذل مجهودًا شاقًا لأعبّر عمّا أشعر به! ، كان صوتي مستَعِرًا وحارًا ، كأنّ فمي موقِدا! . وكنتُ أرى شرارًا يتطاير ، يتسلّق من فوهة فمي ، ويتسلل إلى الخارج ، كَمَنْ ذُعِر حينما وقعَ أصبعه مباغتةً على جمرٍ يتلظّى ، حينها أدركتُ أنّ الذي يحترق هو صوتي! . مليًا حاولت أن ألفظه ، وأتخلّص منه ، حتّى أخمد صديقي بشفقته ، لهيب ما يتّقد . . .

«أتذكّرني قبل مولدي ، كنت في العدم ، أتذكر الأشياء من حولي ، كانت هباء ، وكنّا في طابور طويل ، متراصّين خلف بعض ، لا أحد يعرف أحدًا ، ننتظر وقت خروجنا» .

صفقة

فكرة مرهقة ، أن يصمت العالم ويعتريه السكون ، تحيلك إلى التوجّس والخوف ، والبحث عن حركة وصوت ، السكوت التام ، يخلّف في داخلك ألف إحساسٍ بالضجيج ، الخارج الساكن يثير في الحياة الرّيبة والشك ، يرفع نسبة الهلع لتفقد الرّغبة ، حيث الذهاب إلى البعيد ، إلى الهدوء كما أنك تعبر التاريخ من أقصاه إلى أدناه ، يهيج فيك الذعر ، تحاول دون جدوى أن تحصل على مستقرّ لك في أول نقطة من الشفق الأخير ، التي تلمحها قبل الطلوع ، نورٌ يبزغ لك من قدومك السحيق ، قبل مشرق الأصدقاء في عالمك القليل بهم ، لا أصدقاء هنا ، لا إخوة ، لا صفقات ، لا مكان تذهب إليه دائمًا ، لا مكان متصالح معه ، مفزوع ومستاء ومتردد ، تبحث عن الاطمئنان وتفزع منه ، تهرب من الضجيج إلى العدم ، والعدم يفزعك ، لا هدوء في الهدوء كما تظن .

لو يكف العالم عن بثّ الشك فينا ، سوف نشكّ فيه نيابة عنه ، لماذا لا يتوقف عن زرع الدّهشة المريبة؟! لماذا لا يحاول أن يكون جميلاً بالقدر الكافي لعالم يؤجّلون فيه حسن الظن وتعتريه الخطيئة والظنون؟! لماذا يدرك متأخرًا أنه في مكانٍ غير صحيح؟ العالم مخطئ وخاطئ ، العالم يعيش في مكانٍ غير مناسب ، هل نحنُ العالم ، أم نحنُ الخطأ الذي يقترفه؟ من أين لنا بعالم نسيء

به الظّن لو لم يكن معنا؟ من أين له بعالمٍ مثلنا لو لم نكن معه؟ نحنُ عالمه وهو عالمنا ، إننا وجبته الشهيّة ، نُعِد له سوء الظن على طبقٍ لذيذ ، يتناوله بضمير خانع ، هدوؤه مزعج ، وإزعاجه يشير إلى الحياة ، الفوضى التي نلاحظها على شوارعه ، تبرهن لنا بالفوضى التي يبثّها في دواخلنا ، إننا نعكس ما يبنيه بنا . لمرضى الحياة ، الفوضويّين ، والمبلوسين ، المخطئين ، والسوداويّين ، وقليلي الثقة ، والمرتابين ، والمهترئين ، والمرهقين من فرط الأسئلة ، لهم فحسب ، العالم يلعنهم ويتجنّبهم ، إنه لا يحب فيهم اليأس الذي يثبّطهم ، ويدفعهم لشيئين لا ثالث لهما ، في الثاني يدفعهم لئلا يفعلوا شيئًا ، وفي الأول يدفعهم للدمار والتّخريب ، أما الهادئون ، الذين لا يصدرون أصواتًا ، ويعبرون بخفّة ، جاهدين لئلا يتركوا أثرًا ، فإنه يحبّهم ، ويمنحهم الرّضا .

العالم والحياة ، في البدء جاء العالم ، ثم جاءت الحياة ، ثم جاء الإنسان ، ثم جاءت اللغة ، ثم جاء المعنى ، ثم جاءت المعرفة ، ثم جاء الشّك ، ثم جاء الفهم ، ثم جاء الصمت ، ثم جاءت جميع الأعمال النبيلة ، ثم جاءت جميع الأعمال القبيحة ، ثم جاء النسيان ، كان النّسيان في السابق يشير إلى النهاية ، ثم بعد ذلك جاءت فكرة التذكّر لتنفي النهاية ، ثمّ جاء الحفظ ، جاء هذا المفهوم شديد الإرهاق متأخرًا أكثر من اللازم ، جاء يحاول إعادة التنظيم والترتيب ، كنّا أشبه بلعبة مفكّكة من الدّاخل ، يخرج منها صوت احتكاكٍ مجوّف ، يشير إلى شيء عالق ومتدلدل ، يرتطم على

النّاحيتين بطرفيه المتقابلين ، ويصدر طنينًا متكررًا كتكتكة الساعة ودقّاتها المتوالية ، يؤكد أن الفوضى تتنافى مع الأبدية ، وأن الاتزان الذي نبحث عنه ليس بوسعه أن يستمر إلى الأبد ، جاء الحفظ مقرونًا بالوهم ؛ ليخدعنا ، وأن دوام الأشياء يفسدها ، وأنه ما من شيء يُصر أن يحافظ على ديمومته إلا ويتعدى على الصلاحية ، حتى يفقد ذاته مع الوقت والعالم . جاء ليقول بعبارة مخصصة ، بأن كل شيء كان مجهولاً ، ثم عاديًا ، ثمّ مهمًا ، ثمّ بالغ الأهمية ، ثم صعبًا ، ثم مستحيلاً ، ثم حزينًا ، ثم مضحكًا ، ثم مفقودًا ، ثم عديم الفائدة .

في علاقتنا مع العالم والحياة ، نحاول إثبات أننا نتمتّع بخفّة رهيبة تمكّننا من استخدام طاقاتنا الكامنة للتصالح والتّسامح ، نحنُ لم نفهم ماهي العلاقة حتى نفهم ما هو التّصالح؟! ، علاقتنا به شبيهه بعلاقة الحاجة والمصلحة ، حين نحصل على ما نريد فسوف نعتقد بأن هذا هو جهدنا ، وحين نخسر ، فسوف نوقن إيقانًا راسخًا ، بأنها طبيعة العالم وأنه بشكل واضح يقصدنا . نظن ، وبحد ذاته فنحنُ حينما نظن نرتكب أفظع أخطائنا ، لماذا نظن؟ لأن ثمة شيئًا خاطئًا ، هذه هي حقيقة الظن ، لذلك نحن سوداويون أكثر مما ينبغي ، حتى الحقيقة الجليّة نشكّ بها . نحاول المحافظة على هذه العلاقة معه لكسب المعيشة ، والخروج منه بأقل الخسائر ، كأننا في معركة ، وكأنه الخصم الذي يجب أن نتغلب عليه ونهزمه ، ونأخذ منه كل الغنائم ، نسايره ونساند حتى الانتصار ، ثم نطلب

منه أن يفهمنا وأن يتصالح معنا .

نكذب عليه ، لنبني التوافق معه ، نعطي أنفسنا فرصة المراوغة والتزييف ، نتزيّف أمامه ، نشخص بصورة لا نكونها في حقيقتنا ، نكذب ، نعم نكذب! ، أمام العالم والحياة والنّاس وأمام أنفسنا ، نبرهن في مدة طويلة ما نستطيع أن نوجزه في نصف ساعة ، نظهر أمامه بمظهر العارفين الذين يخفون كمًا هائلاً من الجهل ، تبدو الحقائق التي نقولها صغيرة ، صغيرة جدًا ، فتكبر شيئًا فشيئًا ، تكبر جدًا ، ثم فجأة عندما لا نملك تجاهها أي حيلة ، تصبح لا شيء! لا كبيرة ولا صغيرة . لا شيء! .

نمنح لسؤال واحد أكثر من إجابة ، لأن إجابة واحدة لا تكفي ، ربّما لا تعجبه ، وربّما لا تتناسب مع طرح سؤاله ، وربّما محاولتنا في إيصال هذه الصورة الخفيّة عن عمق معرفتنا تحيلنا إلى الإدلاء بأكثر من إجابة ، وكل إجابة حقيقية نقولها تأتي ناقصة ، وتخفي بداخلها نوعًا مبهمًا من الأكاذيب .

«فيما أنت تحاول الالتفات لشخصٍ ما ؛ دائماً هناك شخص آخر يلتفت إليك» .

صوت - XLVI

15 May-2013

لم أكن أتصور في يوم من الأيام هذه المفاجأة ، أن يغمرني غريب بوافر محبّته ، ويخلص العطاء بلا مقابل كما تخلص الأم لابنها العاق ، وإني رغم ما بذلته من تقصير في أيامي ومساوئ لا يعلمها أحد سواي ، فإنني لطالما شعرتُ بأني مكشوف للآخرين ، وأنهم على أهبة الاستعداد ليروني بوضوح ويعرفون أماكن سوئي ، فكل ما يحاك بالنفس نخاف أن يُكشف سرّه .

كثيرًا ما تردد على مسمعي بأن الناس ما زال يراودهم الخير ، وأن الدنيا مازالت آمنة وجميلة ، فبرغم القبح الذي يسود العالم اليوم إلا أنه ما زال هناك أشخاص رائعون يعيشون بيننا ، يمنحونا هذه الثقة جرّاء ما يحدث من مناظر بشعة أمامنا في العالم ، ويحاولون تحسين هذه الصوَر لتصفو الحياة وتحافظ على رونقها بدواخلنا ، إنهم لا يفعلون هكذا لأنهم مجبورون على القيام به أو أنهم يحاولون خديعتنا لنبقى مستقرين وفي سكينة حيال ما نقدمه لهم وللعالم ، بل إن العالم نفسه لن ينتبه لنا ما إذا كنا مستمرين في العطاء أو توقفنا بسببه ، إنهم يتصرفون لأنهم طاهرون من الداخل ، يعكسون صورهم على مساحة مازالت بيضاء يجدونها كما يتصوّرونها ، إنهم كالرسامين ، حين تفتح كرّاساتهم ستجد صفحاتهم مليئة وملطخة بالألوان ، وحين تأتي في المنتصف ،

ستشتمهم وتستنكرهم وتستغرب ما يقومون به ، وربّما تقول في نفسك : «ما الذي يفعله هؤلاء بهذه الخربشة المزعومة ، إنهم يضيّعون أوقاتهم في ما لا فائدة منه» ، ثمّ ما تلبث حتى تكتشف وترى أنهم أخرجوا لنا في الأخير منظرًا بديعًا .

ذلكم هم الأنقياء في الحياة ، الخير الذي ما زال فيهم يبقى مؤثرًا ومستمرًا وممتدًا ، ولا تعتقد أنهم لا يتشاءمون كما نفعل ، ولا تقززهم مناظر بشعة مثلنا ، ولا يستغربون ويستنكرون ممن يخالف معتقداتهم وقوانينهم ، لكنهم يمسكون زمام الأمور مع ممسكها الصحيح ، يُقَوْلِبُون مفاهيم الحياة الرتيبة ليضفوا عليها طريقة يخرجوا معها من هذه المعاودة التي يكابدونها ، إنهم أبطال تجاه الشر ، يقفون أمامه بحدّه ، مسالمين فيما يخص الخير ، يميلون معه حيث يميل ، يحاولون أن يصنعوا من كل خراب ، شيئًا جميلاً ، مستعدون للتضحيات دونما هوادة ، يتعاملون مع الأشياء بكل رفق وهدوء ، يرمقون المحبة بنظرهم عند كل ما تقع عليه أعينهم .

وربما لو لم يكونوا موجودين معنا ، وبيننا ، ونسمع عنهم ، لساد القبح في العالم ، واختلت أمورٌ كثيرة ، وأصبحت الحياة غير محتملة ، والكوابيس تثقل مناماتنا ، واليقظة مليئة بكسلٍ وهلع ، والأفكار السيّئة منتشرة انتشار الهشيم ، ومزاجات البشر متقلبة كما هي العادة ، واقتراف الخطيئة في حق النفوس لا حدود لها ، وعندئذٍ سيفضّل الناس الموت على الحياة .

***

هكذا بدا لي الأمر ، مثل كابوس ، مثل كذبة مصطنعة ، لكنني سأتبعها حتى أثبت لنفسي أنها غير صادقة ، وأنه لا يوجد أحد من الناس بهذا القدر من الجمال ليقدّم بخسارة واضحة ما يحرص على امتلاكه للآخرين فضلاً عن كونه لي ، لستُ بالشخص المناسب لمثل هذه المبادرات ، فلدي الكثير من العيوب التي أسعى بجهدٍ بالغ لأخفيها عن أمثال هؤلاء الناس ، إنهم مميّزون للغاية ، ولا بد من طريقة ملتوية أثبت لهم بأنهم لن يكونوا أشد جمالاً مني ، وهذا هو الفرق بيننا ، فعندما أحاول إثبات جمالي لهم على سوء أخفيه ، يحاولون هم إيصال جمالهم على بشاشةٍ يظهرونها .

لقد جاءت ، استأذنت في الدخول ، وعبّرت عن حبّها بطريقة غريبة ، إنها لا تريد أكثر من كونها تترك لدي ذكرى قد اختارتها ، لقد خسرت أغلى ما تملك ، وكان لديها من الصداقة والأصدقاء ما يكفيهم للتضحية ، وكان بإمكانها أيضًا أن تعبّر عن حبها بطريقة أخرى ، أقل تعبًا وجهدًا وكلفة ، كما نفعل تجاه من لا يبالون بنا ، نرمي عليهم الكلمات من مكاننا الذين نكون فيه ، وقد نستكثر هذه الكلمات أحيانًا ، حيث لا يوجد ما يستدعي الخسارة والتضحيات .

اختارت وقتًا مميزًا تأتي فيه ، لقد جعلت منه حدثًا وتاريخًا جديرًا بالاهتمام بالنسبة لي ، وها أنا أستقبله للمرة الثانية بعد الأولى ، أتت تعبّر عن حبّها ، حريصة على الأمر ألا ينكشف ،

تريد من الذكرى أن تبقى معي عامرة ، من بعيد قصدت أن تلوّح ، كما تلوّح أوراق الشجرة للعابرين ، ولاشكّ أنها لم تأتِ من العدم ، إنها ترمز لشيء ما ، أو أن القدر الذي اختارني وساقها للبحث عني ، كان يشير إلى دلالة ما ، لم أستطع تجاوز هذا الأمر بكل بساطة ، يجدر أن أفعل شيئًا قبل أن تغادر ، ثمّ غادرت بلا انتظار .

***

في ذلك اليوم ، في تلك اللحظة ، تمنيت أن تتوقّف الحياة ، كانت لحظة سعيدة جدًا ، تمنيت أن تبقى ساكنة على هذه الهوادة من السعادة ، أن يتعطّل الوقت إلى الأبد ، لكنني أظل أشعر بغمرة هذا الشعور يمتد إلى الآخر ، تمنّيت أن لا أفيق ؛ لأن الوقت بعد لحظة جميلة كهذه ، سيكون أكثر حزنًا ، وأكثر كآبة ، كنت أتخيّل اللحظة القادمة ، وأتساءل : كيف ستكون!؟ كنت أصنع عددًا لا نهائيًا من الأسئلة ، وأنا غارق في لحظة سعيدة كهذه ، لحظة لن تمتد! ، كأنها حلم ، لا أريد أن أستيقظ منه . ثمّ أخذت أعيد ترتيب ذاتي ، وأفكّر في نهاية هذه اللحظة . سوف تنتهي ، لابد أن تنتهي ، شئت أم أبيت ، الآن أو بعد قليل . إن لحظة جميلة كهذه ستخلّف وراءها حزنًا طويلاً ، وحنينًا بالغًا ، ليمتد حتى آخر العمر ، لأن لحظة سعيدة نتأمل حياتنا من خلالها لا ينبغي أن تضيع من بين أيدينا ، كنتُ عالقًا في التفكير ، منهمكًا في استعادة لحظة ترتّب ما مضى من عمري . لا أريد لهذه اللحظة الجميلة أن تنقضي ، لأن موتًا طويلًا سوف يفتح بابه بعدها ، وستنقاد أيامي

بخطى حثيثة إلى حزنٍ محقق .

وجاء العام الآخر ، ها هو يسير بجانبي الآن ، وأنا أنظر في الزمان القديم ، بعينين بعيدتين ، وشعورٍ يكبر كلما استمرّت الحياة ، وبمحاذاة التذكّر ، أمنح نفسي يوميًا فرصة للعبور ، كم كان درسًا نبيلاً في الأخلاق ، وكم كانت ذكرى تعذّبني حين لا أستطيع ردّها ، مرات عديدة كنت شديد العِبرة ، لأفعل ما لا يستطيع أحدٌ على فعله ، حتى لو كلّفني مبلغ ما كلّفني من التعب ، فلم يعد لدي من حسرة غير تقديم الجميل ، وحين أفكر برويّة ، أرى الأمر لا يستساغ ، فالجميل حين يكون بلا مبررات وأسباب أفضل من ردّه ، وردّ الجميل من الأساس لا ينتظره صاحب الجميل ، إنه لم يأتِ إليك ويختارك ، لتفعل مثلما فعل ، وعلى قدر ما كنتُ أشعر بالخجل من ذاتي ، وأحاول أن أصنع شيئًا مجيدًا ، إلا أنني في الحقيقة لم أكن أريد لأفسد ما كان جميلاً ، فقد كنتُ حريصًا على عدم تشويه هذه الصورة بأي طريقة كانت ، إن إصغاءنا فحسب ، ووقوفنا أمام أنفسنا ، على جانب هذه المواقف ، لنعيد ترتيب ذواتنا من الداخل ، ونولد من جديد ، أمرٌ في غاية التألّق والمروءة .

وسيأتي يوم ، ربما يكون متنائيًا وبعيدًا ، وربّما يكون أقرب من الغد ، يدثّرني في حزن مطلق ، وتهطل الكربات من كل مكان ، ويقل عدد الأصدقاء في الحياة ، ثم أتذكّر نبلاً كهذا ، وأشعر بمياه السعادة تغمرني ، والابتسامة تحلّق أعلى شفاهي ، وأبدأ في التنفّس بدافعٍ جديد ، لأحافظ على بقائي في الحياة .

ما أراه يخالف ما أعرفه

جئت من زمنٍ قديم
لا يشبه ما نعرفه الآن ،
وقفت أمام الحاضر بهيئةٍ رثّة
أحملق في مناظر الناس وسماتهم
تُضحكني صورهم وقصّاتهم الغريبة
مثلما تضحكهم صورتي القرويّة
التّراب يعلو هامتي
وملابسي مشقوقة
وعليها بقعٌ صفراء
لكنّ قلبي طليقٌ وكريمٌ
لا يضمر العداوة والخِبّ!
وقفت أتأمل . . في السماوات
اتّكأت على حكمة ماضية
سمعتها من عجوزٍ حسناء
قالتها أمي المتوفّاة أثناء ولادتي
على لسان أبي الذي عاش معي

حتى السابع من عمري :
«الغد ليس لك ،
هو لشبّانٍ لم يولدوا بعد»
وعرفتُ أن هذه اللحظة هي لي
مع الأمس الفائت
أما الغد فإنه مرعب ،
يحمل صورًا لا أعرفها
مضحكة وحزينة!
لشبّانٍ قد ولدوا الآن
لكنني لا أعرفهم .

«يجعلنا الألم متماسكينّ ، وبصلابة . برأيي ، أن عدم وجود الألم مطلقًا ، في حياة شخصٍ ما ، يجعله هشًا» .

صوت - LXXX

لَوْثة

جئنا الحياة ، ثمّ جلبنا لها الجمال ، فأصبحت الحياة جميلة ، ثم فقدنا الجمال ، وبقيت الحياة فقط .

انهَض ،
فالحياة أمامك . .
انزع ثوب الرّعب ،
وواجه أيّامك!

قلق بجانب قلق ، هم ينمو بالجوار ، تعب هناك في البعيد يحرث ليجسد له مكانًا كي يستريح فيه ، البقاء في ظلال الحياة المكلومة يهدد السعادة ، ولا معنى لهذه العلل ، عمرك لم يتجاوز الحزن المطلوب ، ما دمت يانعًا لم تواجه أبعد من همّك همًا ، ولا تعرف شيئًا من هموم الحياة بعد ، أنت أصغر من حزنك ، وحزنك أكبر منك ، لا تبالي كيف تتخلّص من هذه المساحة المحترقة إلا أن تعيش بداخلها ، أمامك الوقت يقترب منك ، لكنك تبتعد عنه ، يبتعد عنك ، ثم تقترب منه ، تهرب من مكانك إلى آخر ، منتقلاً

بكل تلك العلل .

لا فائدة من هروبك ، تدخل في معركة مع ذاتك ولا تدري من ينتصر ، لأن خصمك هو أنت ، تناضل رغمًا عنك ، تسير مرغمًا ، لأنه لن يتعطّل شيء من أجلك ، وأنت تعطّلت من قساوة اليأس ، والقدرة على تجاوز الأزمات ليست معك ، ثم تقف وتستسلم وتنتظر متى آخر الحلول . تشعر بشيء يصعب عليك وصفه ، كهذا الذي تشعر به الآن ، شيء يمتد من الداخل إلى الداخل ، يشعل حزنًا ويطفئ آخر ، كأنك تمشي ولا يهمّك أن تصل .

ما يحدث معك موجع ولا إنساني ، تصير بهذه القوة المطلقة ، كأنك جدار صلب ، ينفد صبرك ووقتك وجهدك ، وأنت ما زلت تجاهد ، حتى تخور قواك كلها ، كي تحافظ على قلبك من الانهيار ، تضع يدك على قلبك ، تتأكد من سلامته ، يرعبك أنه ينبض بهذه السرعة الفائقة ، كأن جرحًا يطارده ، يحزنك أنه لم يعد قويًا كما قبل ، فقد فقدتَ صوابه ، بداخلك شيء يتحطم ، يتكسّر ، يتشظّب ، وكل جزء منك يذهب إلى غير مكانه ، ترتيبك الذي تعرف ، يتبعثر ، روحك تنهار ، تموت بهدوء مثل ورَقة جافّة ، أرهقك الأسى ، عطَب حياتك ، عطّل جوارحك وأحاسيسك ، أصبحت تمشي دون وِجهة تولّيها ، تنام وتستيقظ كالكائنات ، حيّ أيضًا مثلهم ، ولكنك لا تعيش .

***

حياتك مجرد أحداث ، كومة من العناء ، حفنة من المضايقات يا صديقي ، لن تصفو كما تريد ، إنها بشكلٍ أو بآخر تعني القلق ، القلق الذي ينهشك دائمًا ، القلق الذي يشعرك بأنك ما زلت على قيدها ، كأنها عبارة عن مسرح ، وأنت واقف على منصّته ؛ هناك من ينتظر ظهورك ليصفّق لك ، هناك من لا يريد رؤيتك ؛ وهناك من أخذ يشتمك لأنك لم تمثّل الدور الذي يعجبه ، هكذا تبدو ، تريد أن تنهيك ، وأنت تريدها أن تستمر ، لذلك الصراع فيما بينكما يبدو طويلاً ، لا بد أن يريح أحدكما الآخر ، بقاؤكم على هذه الحلبة يجلب المزيد من اللكمات ، ولا تدري كيف تستسلم لها ، فلتعشها وتواجهها كما تأتي ، لا كما تتمنى .

لا تظهر كاملاً ، يجب أن تخفي شيئًا منك ، إن المتعة الحقيقية التي يجب أن يتمتّع بها الإنسان ، هي الغموض ، الغموض الذي يحرض الآخرين للبحث فيك ، لاستكشافك ، للحديث عنك ، ولجعلك الفكرة المبهمة .

لا تعش قاسيًا ، يجب أن تكون مرِنًا حتى في ثباتك ، ينبغي أن تميل إذا شعرت بالضرورة ، وأن تستند كلما شارفت على السقوط ، وأن تنهض كلما سقطت ، لا تبقى هكذا صلبًا ؛ فتخسر مرونة الحياة .

رتّب روحك ، لملم ما تبقّى منك ، خذ بيدك إليك ، ارجع إليك ، لا تكن وحيدًا ، كن معك ، لا تكن مع شخص آخر ، أنت الآخر الذي ينبغي أن تكون معه ، امسك بك ، لا تبقى كما

كنت ، جدّد لهفتك ، اشترِ سعادتك ، صِر متغيرًا على الدوام ، أنصِف ذاتك ، احملها على محمل الجد ، كُن قدوة نفسك ، واجه الآخرين بكل قوّتك ، لا تختبئ خلف قناعٍ لا يليق بك ، ولا تثِر شفقة أحد .

***

لا تشعر أنّ الطريق ضيّق ؛ حتمًا يوجد آخر ، يوجد منحى آخر ، يوجد مكان آخر ، توجد إجابة أخرى ، ويوجد يوم آخر . لا تعش خائفًا ، ابق شجاعًا ، تماسك ، اسمح لنفسك بالمغامرة ، مرة مرّتين ، وحتى عشر ، ليس بالضرورة أن تنتصر ، وليس من العيب أن تُهزم! انهزم ، مرة ، مرتين ، وحتى عشر ، جرّب أن تكتشف أشياء جديدة ، اخرُج ، ناضل ، هل تسمع بالكفاح؟ هل تعرف ما أعنيه؟ هل تفهم ما معنى أن تكون شخصًا مكافحًا؟ ، كُن مكافحًا ، إنها خصلة الأبطال ، لا تقف في وجه المدفع ، كن أنت المدفع ذاته ، أمام نفسك أولاً ، ثمّ أمام الحياة ، وأخيرًا أمام كلّ شيء .

اكسر خوفك بالشجاعة ، طمئن ذاتك بأنك تستطيع وتستطيع ، لا عليك إن لامست بأنفك التراب ، ما يهم هو أنك لم تسمح لأحد أن يرغمه عنوة عنك ، أزِل رعبك ، قاوِمه ، كن عنيفًا مثل موجٍ يتلاطم ، لو استطعت أن تقاوم ذاتك ، فإنك سوف تقاوم كلّ شيء .

انسَ الماضي ، لا تفكّر الآن في المستقبل ، غامر لأجل هذه اللحظة بين يديك ، لا تدعها تذهب دون أن تستفيد منها ، ازرع

وردة ، دعها تنمو ، اسقِ شجرة ، دعها تخضرّ ، اكتُب كلمة ، كلمة أخرى ، اتركها تتكعّب حتى تصبح جملة مفيدة .

لا تلتفت ، لا تلتفت ، ليس إلى الوراء فحسب ، بل حتى عن يمينك وشمالك ، لا تهتم لمن ينافسك ، التنافس يجلب الكراهية ، ولا أنصحك أن تنشغل بكُره منافسيك ، ليس لديك الوقت لتكرههم ، إذا لم تكن قادرًا على حبّهم والخوض في مغامراتهم ، دعهم وشأنهم ، أنت هنا من أجل تحقيق الهدف ، الهدف هو ما تصبو ناحيته ، النظر إلى الأمام ، التحديق في المركز الذي تريد الوصول إليه .

تنبأ بالأخطار ، وكافحها ، لا تتجاوزها ، بل امش فوقها ، بوسعك ، إذا كنت تريد ، لأنك تستطيع ، نعم تستطيع ، أن تفعل كل ما لا تستطيع ، صدّقني ، تحتاج إلى الدّافع ، وكل الوسائل بين يديك .

***

عليك ألا تفهم الحياة ، إنها وسيلة جيدة ورائعة لفهمها ، فأنت هنا لتعيشها بهذا الشكل ، بقناعة ومضي ، لا لتتعارك معها وتحاول فهمها ، إنها معقدة ولا تمنحك ما تريد ، عليك أن تملأها كي تشعر بها تمر بخفّة وجمال ، ففي حياة كهذه ، تمشي بسرعة هائلة ، يجب أن تكون قادرًا على استيعاب المزيد من المستحيلات ، يجب أن تمرّن معتقداتك ، بأن كلّ شيء جائز حدوثه ، فلكل إنسان في هذه الحياة ؛ حياته الخاصة به ، يجب أن يتواجد فيها على الدوام ، ولا ينتظر أن يكون كالآخرين ، ينبغي أن يعيشها تحت أي ظرف ،

وكأنها عمل لابد أن يقوم به على أكمل وجه .

ابكِ ؛ اكتُب ، اتّصل ، نَم ، فكّر ، اهرُب ، قاوم ، حاذر ، صارع ، تَصَدَّ ، تَمَرَّد ، اثبت ، جَابِه ، حارب ، خاصِم ، خالف ، دافع ، ذُد ، شُق ، شَاقَّ ، شُذَّ ، اصمُد ، ضادّ ، عارِض ، عَانِد ، اعصِ ، غالِب ، قاتِل ، كافِح ، نازِع ، نازِل ، ناضِل ، نافِس ، ناقِض ، واجِه ، اخرج بعيدًا عن تكرارك هذا ؛ مُت لو كان بإمكانك أن تعود ؛ افعل أيّ شيءٍ يعيد ترتيبَ روحكَ من جديد .

جدوى

بعد ألف عام
مع مرور الوقت
فيما يقارب ٣٠١٥
سأولد من جديد ،
أسعى لأكون ذا مغزىً آخر ،
أفعل شيئًا جديرًا بالذّكر
أتوسّل وأتسوّل ،
أتحوّل إلى ضمادة ،
أحمل معي صمتًا للضرورة ، وكلامًا لمضيعة الوقت ، وبابًا مغلقًا للطوارئ ، وحزنًا لإثارة الشفقة ، وأصدقاء للغياب ، ونيّة ينقصها الفعل ، وبكاء لساعات طويلة ، وأغنية للحب ، وإحساسًا لم يستخدم بعد ، وجرحًا لأخذ الثأر ، وشتيمة لمبارزة كلامية ، وأمنية للحظة مؤقتة ، وشجرة كبيرة للظل ، وجوعًا لردع التخمة ، ويومًا مليئًا للفراغ ، وراحة طويلة للمشقّة ، وطريقًا بعيدًا للسفر ، وكلمات لكتابة قصيدة ، وطقسًا بديعًا للنزهة ، وخَلوة للجلوس مع الذات ، وحنينًا بالغًا للمارّة ، وأسئلة راشدة للتائهين ، وحلمًا لنومة هانئة ، وهدفًا للتّحقيق ، وسأمًا لمواجهة المرارة ، وذكريات مليئة بالبهجة ، وابتسامة مناسبة للمناسبة ، ومكرًا للمراوغة .

في ذلك العام ،
سأسعى لأكون ذا غاية فحسب ،
أطرأ في كلّ مكان ،
مثلَ فِكرة تحت التنفيذ ،
وأجيء بسرعة فائقة ،
للتّواجد والإغاثة .

«تتعرّف عليهم ، ثم تعرفهم ، ثم لا تعرفهم ، ثم لم تعد تعرفهم ، ثم لم تعد تعرف من هُم» .

صوت - LXVII

كل شيء يبدأ بك، ويمُر عليك، وينتهي منك

وحيداً ، تبدأ حياتك على هذا المِنوال البائس ، وتمضي لستَ تريد شيئًا ، لا يهمّك أكثر من سلامتك ، وأقصى طموحك أن تعود مثلما ذهبت ، وحيدًا وسالمًا ، وفي يوم من الأيام تحدث مفاجأة ، لم ترتّب لها من قبل ، ساقها القدر والطريق إليك ، بعد أن عثرت مصادفة على شخص ، جاء إليك أو ذهبت إليه ، لا يهمك ماهي الطريقة التي التقيتما بها ولا يعنيك كثيرًا من هو؟! س من الناس ، تقول في نفسك بأنك ستقضي بجواره ساعة وتمضي ، ستقطع معه مسافة الطريق حتى ينتهي ، محادثة أو اثنتين تتحدثان فيها عن هوايتك أو آخر مدينة زرتها أو أماكن وجود الأصدقاء وتنتهي العلاقة ، وفي داخلك شيء يتمنى أن تستمر معه ، يُثني عليك بأنك شخص جيّد ومحترم ويريد رؤيتك مجددًا ، وترد عليه بأن هذا من جمال أخلاقه ، تزيد في تواضعك المصطنع وتقول له : لا أستحق هذا الإطراء ، يبتسم في وجهك ، ويخبرك باستحقاقك أكثر من ذلك ، وكلاكما تعرفان أنكما لا تستحقّان! ، دون أن تضعا في الحسبان أي احتمالٍ قد يرد ، تجيء إلى ما قبل أن تفترقا لأول مرة ، وبحماسٍ شديد ، تتمنيان أن تلتقيا مجددًا ، ثم يعود كل واحدٍ منكما إلى حيث جاء ويذهب إلى حيث يريد ، ومن الغد ، تلتقيان ، كل منكما كان ينتظر الآخر أن يأتيه ، ها أنتما معًا

مجددًا ، تخبره أنه على البال ، يردّ : وأنت كذلك ، تعيدان الاطمئنان المكرر الذي هو بداية لحديث قادم بينكما ، يبدو لك كأنك تعرفه جيدًا الآن ، ثمّ تتعرف عليه ، يتطوّر الأمر مع الأيام لمعرفته وقربه ، ثم تراه الشخص المناسب ، بعد أن تصوّرت بأنك تعرفه ، ثمّ تحوّله إلى الشخص القريب ، بعدما تأمّلت معرفته ، ثم تجعله الشّخص الوحيد ، بعدما تأكدت من معرفته وراهنت بأنه لن يتكرر ، ثم كالصدفة التي التقيتما بها ، يحدث ما لم يكن على بال ، ها هو يعود إلى شخص غير مناسب ، بعدما عرفت بأنك لا تعرفه ، وغير قريب بعدما تأكدت بأنك لم تعرفه ، وتفترقان بعد هذه الأيام ، الشهور ، الأعوام ، وأنتما لا تعرفان بعضكما .

بفعل يديك ، إن صح الأمر ، تعرّضت لكل هذا ، فتحت قلبك على مصراعيه ، وسببت لنفسك ألمًا كبيرًا ، ونزقًا ممتدًا ، كنت خاليًا من كلّ شيء إلا من ذاتك ، لا تشعر بما تشعر به الآن ، غير أن بؤسًا أصابك ، حوّل مسارك إلى جهة لا ترغب بها . كنت ترغب بها أو أنها بدت كذلك ، حين بدت مفروشة بالنّعيم ، شأن أول الدروب عندما تحط قدمك عليها ، دون انحراف ، ثمّ تفاجأت بمسارٍ ليس بمسارك ، لكنك لم تعهده من قبل ، حين واجهت أول عابرٍ أمامك .

غريبان ، برفقة طيّبة ، في مكان غريب ، تحملان أحداثًا غريبة ، بضحكاتٍ متتالية ، تمضيان معًا في حكاية بسيطة ، وتؤثثان لزمنٍ قادم ، بداية حزنٍ لا ينضب . جئتما ، غير كاملَين ، عِشتما

في منتصف الحياة ، آخر يوم لكما ، اختصرتما الطّريق ، وحقّقتما الأحلام ، بكيتما معًا ، أمام مشهد مرعب ، تصوّره مخيّلتكما . مضيتما معًا ، تعبران المسافة إلى آخرها ، تقصّان الطريق على حكاية قديمة ، تضحكان وتنعمان لوحدكما ، متناسيان جروحًا تثيرها صورة عابرة ، أو نظرة المارة إلى وجهيكما ، مضيتما معًا إلى البعيد ، إلى نهاية مرسومة تتصوّرانها ، مذ بدأ المشوار وأنتما تسيران ، بأقصى هدوئكما إليها ، تفكران ، ومشغولان بنهاية سعيدة ، تنهككما .

مثلك ، بدأتَ تحب ، ومثلك ، تتعاطى الذكريات ، بحزنٍ خانق ، لم يكن ذنبكما أن تتبادلا الدفء ، ولم يكن ذنبكما أن تعاودا المجيء ، صلُح العمر معكما ، وبكما خرِب ، مسحتما بأيديكما على جرح بعيد ، صدَعٌ في القلب ، تمحوانه بكلمتكما الحنونة ، تنظران في الناس بعينٍ واحدة ، بأخطائكما وحماقتكما وبكائكما ، قلصتما مشوار العمر . غير أن طارئًا حدث ، دون أن تدركا فجاءة الطريق ، أو تفكّرا بلعبة الأقدار ، ودون أن تهتمّا لمصاعب الحياة ، جاء وأفزعكما ، نفض أيديكما المشتبكتان ، وأرهقكما ، بقيتما معًا ، ولستما معًا ، متجاوران بعيدان ، حائران في المنتصف ، ولا أحد يدنو من الآخر ، يشعر كل واحد منكما أنه مع الآخر ، والآخر ليس معه ، متذبذبان .

شارفت النهاية الآن . حادثٌ حدث لم يكن في الحسبان ، صنع منكما شخصين بائسين ، وأنت تحاول ، وذاك يحاول ، أن

تحافظا على الصورة المرسومة من قبل ، تبذل كل ما بوسعك ، يبذل كل ما بوسعه ، لكيلا ينهار لكما حلم ، أو يزعجكما أن يعود كل واحدٍ منكما وحيدًا ، كما كان . كابوسًا أصابكما ؛ صرت تتفرّجه بمفردك ، تجلس الآن بعدما افترقتما ، تقلّب في المشهد أمامك ، تحدّق فيه ، وتتأمّله ، كيف كنتما وكيف صرتما؟ .

***

كقطار يركبك الناس ، توصلهم إلى حيث أمنياتهم ، عائدون منك إلى أنفسهم ، آخرون ينتظرونك ، يريدون منك أن تدلهم على الطريق الصحيح ، تأخذهم من هنا إلى هناك ، يقصّون التذاكر ، ليصعدوا على متنك ، مع انحناءٍ منك دون استياء ، يبيتون فيك وينامون على ذراعك الممتدة من طول السفر ، يسرقون الوقت الذي تضيّعه خلف مشيئتهم منك ، من هذا المكان إلى ذاك ، وأنت أنت ، منحنيًا وتسير ، حيثما يرغبون .

يستخدمونك كقطار ، يزعجهم أن تتعطل أو تتأخر ، يعيقهم أن تتمنّى أو تتعذر ، سيُحرَمون من متعة الليل والأصدقاء ، وستعيق أناسًا ينتظرونهم ، وسيأخذون ثأرهم منك حين تكون سبب ما يحدث لهم . يغنون في جوفك ، وأنت تستمع إلى طربهم على أقلّ من مهلك ، آخرون يبكون من عنائك ، من طنين الوقت المثقوب أعلى نافذتك ، ومن صرير الأبواب عند اهتزازك . يظلّون فيك ، حتى تنتهي رحلتهم ، يدفعون رسومك عند الانطلاق ، ثم لا يمنعهم أن يتركوا قاذوراتهم قبل الوصول أمام بابك .

كقطار ، ستمشي حيثما يريدون ، لا ما تقتضيه مصلحتك ، ستقف تظن أنك استطعت التغلب عليهم ، ثم يحاسبونك على الوقت مدفوع الأجر ، والضائع من أوقاتهم لأجلك . ستواصل المسير لأنك اتفقت على سداد الدين ، ووفاء العهد ، وستلحظ أن العهود ليست من صالحك ، وكل الضرر قد أصابك ، ثم لا تستطيع إلا أن تسير ، بنوافذ مكسورة ، وأبواب مغلقة ، وهيكل يثير أحزان الرّاكبين . لن تتعب من طول السير وحيدًا ، وهم على متنك ، لكنهم سيملون من طول الجلوس ، ويشعرون بالتعب ، تجلبه لهم قبل أن يغادروك ، تذهب وتعود محاطًا ببؤسك .

ها قد وصلت أخيرًا ، إلى محطاتهم ، صعد آخرون ، لن تعود وحدك ، توصلهم حيث أمنياتهم ، عائدون منك إلى أنفسهم ، عيناك تملؤها الأسئلة ، كأنك باب موارب للنسيان ، أصبحت من فرط قامتك منحنيًا ، تمضي إلى المجهول ، الذي عرفت أخيرًا ما هو! ، شفاهك عطشى مثل كأس مكسورة ، تلوك اللوعة بفم قد حوّلته الحياة إلى أرضٍ صلبة ، انتهى تاريخك ، وانهارت أحلامك ، وأديت ما عليك ، بقي أن تغلق قلبك ، وتواصل الحياة ، وتواصل الطريق ، وحيدًا وحيدًا ، لأنه وبفعل يديك ، إن صحّ الأمر ، تعرّضت لكل هذا .

وشاية

والأصدقاء الذين كانوا هنا
-وأشار بيده إلى قلبه-
فبكت أصابعه .
الذين حوّلوه إلى رماد ؛
بعد هذا الأزل المشتعل
قاصدًا إضاءتهم . .
لم يتركوا له فرصة للشّفاء
حين تمرّ أسماؤهم من أمامه
تخدشه!
وحين تعبر أصواتهم من عليه
تترك فيه أثرًا بالغًا!
لم يلتقوا لوداعٍ أخير ،
قال أوسطهم :
«لا أقدر أن أبقى
إلا إذا هجرتُ الدّاني» .
قال أعزّهم :
«أريد أن أهدي الموت
لمرة واحدة على الأقل

بأن أمنح الحب ، ثم أصادره»
وهو يترنّح في العذاب العذب ،
على أقوالهم كما سكّين
توزّعه إلى شظايا!
بجانب ليلة كانت مليئة بأحبابه ،
يسهرها بجوارهم ،
هذه المرّة ، سيقضيها وحيدًا .
وحيدًا جدًا
برغم زحمة الأصدقاء!

مرة تلو مرة

مُنزوٍ
أقل أو أكثر من ذلك
لا أحد ينساه ، ولا أحد يتذكّره!
يتحدّث مع الجميع ، دون أن يكلّم أحدًا
لا هو مع ذاته كما يجب
ولا هو مع أحدٍ كما ينبغي . .
يسكُن ذاته بثِقل
ويمرّ من أمامهم خفيفًا
يتحوّل إلى كائنٍ عدائي
حين يحتقر مشاعره أحد . .
ليس له أعداء في الواقع
ولا حتّى في الخيال!
إنهم من يأمنهم
يتحوّلون إلى ذلك . .
تخيفه الثّقة
إنه لا يحب أن يكون سببًا في خيبة أحد!
يهتم في اختيار أصدقائه
كما يهتم في أناقة ملابسه

لأنهم صورته أمام الآخرين . .
تجرحه الكلمات الجميلة
حين ينطقونها بصورة طائشة
تختفي من أمامه الدّهشة
بعد مضّي اللحظة الأولى . .
يبكي طويلاً
حين يريد أن يسترد صحّته
لأنه يقول :
هناك مشاهد
يجب غسلها بالدّموع!

«لستَ تائهًا ، أنت فقط ، في المكان الخاطئ» .

صوت - LXVIII

تأمل المأساة

أن تقف ، بجوار الطريق ، لا شيء لديك تقوم به ، لكنك تجد نفسك دون إدراكٍ منك تقوم بفعل شيءٍ ما ، تنظر في السيارات كيف تعبرك؟ ، في من يمشون بجانبك كيف يتجاوزونك؟ ، تحدق في الشجرة كيف يحرّكها الهواء؟ ، في الورقة الساقطة كيف تطير مع نسمة بسيطة؟ ، تتأمّل في الماحول بجوارك .

كل شيء يبدو أمامك مجديًا للتأمّل ؛ المباني ، السور ، الأشجار ، الأسواق ، الطريق ، السيارات ، العابرون ، القطط ، وحتى الحشرات المجتمعة على إضاءة الرصيف ، الأماكن جميعها ، تتأمّل كل شيء بجوارك ، تقضي وقتك على هذا النمط ليمرّ دون أن تحس به .

تشعر بشيء ما ، كالملل ، يداعبك . كأنك للتو أنهيت عملاً شاقًا ، لكنك لم تفعل شيئًا ، هناك شيء ما على كتفك ؛ ثقيل ، وثقيل جدًا ، تشعر بثقله ، ولا شيء يعلو كتفك ، تشعر بالفراغ أيضًا يخترقك ، كم أنت هادئ وبائس ، تنظر في الوقت كيف يمرّ بهذا البطء من جانبك ، ومِن عليك ، ثم يزعجك أن الناس مستعجلون .

أشياء تطاردك ، تقيم في رأسك ، توهم نفسك أنها لا تعنيك ، تحاول بالنسيان أن تتغلّب عليها ، لكنها تغلبك! أشياء كانت لك ،

والآن ليست لك ، لكنها لا تنفك عنك ، تنتظر شيئًا لا يأتي . قد أخطأك وتخطّاك ، وأنت في مكانك هذا ، بجوار الطريق ، تتأمل كل ما حولك ، دون أن تقدر ولو لحظة ، تتأمّل وتستعيد فيها ذاتك .

تبحث عن ذاتك المفقودة في شخص آخر مفقود . إنها مأساة ، تواصل السير دون أن تعلم وِجهتك ، لأن شيئًا ما من الداخل يدفعك بجنون إلى الضياع! ، تغلق الباب دون أن يطرقه أحدٌ ، لأن انغلاقه طول هذه المدة وأنت بالداخل وحيد ، يثير فيك الرُعب ، تفتحه ، ولا يأتيك أحدٌ ، تغلقه مرة أخرى ، ولا يطرقه أحدٌ أيضًا ، تنام دون أن تشعر بالنّعاس ، لأن الليل يبدأ من وقت استيقاظ أحزانك ، ولأن السواد بالنسبة لك يعلوه بكاء آخر .

تشعر بأنك إنسان غير مقبولٍ في حديث الذين يهتمّون بشأنك ، تحاول في كل مرة أن تبدأ من جديد ، فتسقط ؛ تنهض ثمّ تسقط ، تسقط ثم تنهض ، تنهض ثم تسقط ، فتبقى أخيرًا متمثلاً في سقوطك دون أن يتعبك الوقوع مرة أخيرة ، تخبر من تحب أنك تحبّه ، فيشمئز منك ، تزوره في اليوم التالي بابتسامة صنعتها لأجله ، فيعتذر بأنها لم تتناسب مع مزاجه ، تسدي خدماتك للآخرين ، فلا تجد من هو بحاجتك ، أن تمضي حياتك من يديك ، وأنت تسأل وتحاول ولا تلقى جوابًا يطمئنك .

إنها مأساة . . أن تضيع في طريق مجهول ، ولا تجد من يدلّك نحو الطريق الذي جئت من أجله .

***

العقبة ، التي بينك وبين الآخرين ، الطويلة والصعبة ، كما لو أنك في زقاق ضيّق ، تجاهد لتخرج منه ، لا ينفذ معه إلا واحدٌ واحد ، هذا اللحام الممتد منك إليهم ، ومنهم إليك ، الخيط الرقيق جدًا ، المتّصل بهم ، الشعور الذي يدنيك بجوارهم ويبعدك عن نفسك ، وعلى أية حال لا يقرّبهم منك ولا يقرّبك منهم ، لست معك ولست معهم ، لست أولهم ، ولست في المنتصف ، ولست في الأخير ، قد تكون بجوار الطريق ، وربّما لا تكون ، لكنك هنا -مع الأسف- كما الفراغ ، يخترقك أي شيء دون أن تشعر به ، تشعر أن شيئًا ما ينقصك ، تتحسس أطرافك ، فإذا هي كاملة ، تنظر إلى ملامحك ، وهي الأخرى مرتّبة ، ثمّ تضع يدك على قلبك ، وآه ، هنا خَطبٌ جلل! ، تشعر أنه ليس قلبك ، مقيّد في مكان ما ، ضائع ومحتار ، كأنك ورقة ثمينة نسيها صاحبها على طاولة مقهى ، حاول أن يتدارك الوضع ويعود بعجلة ، لكنه لم يعثر عليها ، وأنت حتى الآن لم تعثر عليك .

شيء ما يربطك ويصطدم بك ، يرفعك بقوة ويفلتك ، وهو يستمتع بمشاهدة منظرك الحزين والمضحك ، ثمّ يرسلك إلى مكانٍ ما ليَصرِفك عن نظره ، بعد أن سئم منك ، كالزّحام تتخبّط ، كعقبة ، تعترض طريقك بنفسك ، وتحول أمامك دون تحقيق شيء .

***

تثيرك الشكوك ، شكوكك! لذلك تبدو غير مرتاح ، تعلّق ما تشعر به من أرقٍ على الآخرين ، دون أن تقدر على تحمّل ما

يؤرّقك ، بعيداً عن ذاتك ، وذاتك ملتصقة بك ، وهذه المسافة الطويلة بينكما ، مجرد إحساس خاطئ ، يمكنك في أية لحظة تلمّس ما يملأ هذه الفجوة دون عناء أو جهد أو تعاسة .

لا أحدّثك عن التفاؤل ، لأنك لست محتاجًا إليه ، إنك بحاجة إلى التصديق ، إلى الحقيقة ، إلى معاشرة الواقع والرضا التام ، بعيدًا عن الزهو والغرور بالحياة ، بعيدًا عن حديث أحدهم أنه يستطيع أن يُخرجك من هذا المأزق ، لا شيء بعيد عنك ، أنت بعيد عن الأشياء ، أو يخيّل إليك أنها كذلك ، من مكانك هذا يعتريك القصور في النظر إلى ما لا يمكنك أن تراه ، ثم لا يمكنك أن تراه ، ولن يمكنك رؤية ما هو واضح إذا كنت لا تريد رؤيته .

شُكًا! من الجيّد أن تشعر بالقلق على أن تكون مصدر قلقٍ لأحدهم ، الآخرون ، لا يستطيعون تحمّلنا إذا لم نكن قادرين على تحمّل ذواتنا ، لا أحد بينهم يشبهك ، أنت في أحايين كثيرة لا تشبه نفسك ، وحتمًا لا يمكنك القول بأنك تشبه شخصاً آخر ؛ فلماذا تشعر بأنك غير مرتاح؟ اطمئن ، لا أحد يشعر بالراحة كما هي ، وعليك أن تطمئن جيدًا في هذه الغرابة ، بأنه لا أحد مرتاح مثلك .

«لا يوجد ما هو أخطر على الإنسان من نفسه» .

صوت – LXIV

مسلسل

في النهاية من أنت؟ وقبل النهاية ، من تكون؟ كيف بدأت؟ هل تعرف كيف بدأت؟ هل تعرف من تكون؟ أنت تؤمن بذاتك وهذا أمر جيد على كل حال ، لكن عليك أن تدرك بأن ذاتك التي تؤمن بها وتبجّلها على أكمل وجه ، ليست هي التي يؤمن بها الآخرون ، ولا تعرف حقيقة من تكون ، لأنك لست كما تؤمن بذاتك ، إنك كُتلة من التناقضات والأمزجة ، أتراك تشرب النعناع لأنك تريد أن تحسّن مزاجك ، حسنًا ؛ ثم تشتم من يشربه لأنه سبب لك هبوطًا في الضغط ، هل تكره النعناع أم تكره ذاتك؟! ، هل نسيت أنك للتو تمجّده؟ ، ثم ترددت ، تناقضت ، كما ينبغي على كل إنسان أن يكون كذلك ، وهذه هي طبيعتك ، متناقضًا ، تكره من اللحظة التالية ما كنت تؤمن به وتحبه ، حين تكره ذاتك تكره معها كل شيء حتى لو لم يسبب لك الأذى ، لكنك تُعلّق كل أذىً عليه لتمجّد ذاتك ، وفي الحقيقة لا تعرف ما هو الأذى؟ وما الذي يعنيه أن تتأذى؟! غير أنك تشعر بشيء يؤذيك ، وهكذا تبرهن لنفسك كما يبرهن الناس لأنفسهم بأن هذا هو الأذى!

تحب الآن ، كنت قبل قليل تفعل ذلك ، تحب بوفرة بالغة ، كنت متناغمًا مع حجم الألم الذي لم تحس به ، يتراكم دون إدراكك ، كنت واهمًا ليس إلا ، وما إن فقدت ما تحبّه ، حتى بقي

لك الألم ، فشعرت به ، يطحنك ويؤذيك ، لأنك تحب ذاتك تفرط في نعيمها تحت أي ظرفٍ من الظروف ، لا يهمّك غير اللحظة الجميلة التي تعيشها الآن ، وتخدع نفسك بأنها سوف تستمر حتى الأبد ، ثم تعود ، بعد أن تنتهي ، ويبدأ إحساسك بفقدها ، بالألم ، وهكذا ، حين تنتهي الحكاية ، يبدأ الإحساس بها ، لأنك من قبل كنت مذعنًا فقط ، راضخًا لها ، كنت تتفرّج وكأنك تعبّئ ذاتك من الداخل ، حتى شعرت بشيء سيصهرك لاحقًا ، وها هو جاء ليصهرك الآن .

***

يمكن أن تكتشف بداخلك إنسانًا ، آخرَ ، جديدًا ، تمامًا ومختلفًا عنك ، يمكن لك من خلال علاقتك بنفسه أن تجد هذا الأمر متجاوز الدهشة ، فهناك شخصان آخران رئيسيان يتواجدان بالداخل ، أحدهما يدفعك للتصديق وإيهام الآخرين حتى يحبوك ويرضوا عنك ، والآخر على النقيض تمامًا ، لا يحب أن تعرضه عليهم ، يكرهه الجميع ، ولا أحد راضٍ عنه .

حين تتفسّخ عن ذاتك ، وتتجرّد منها ، بفعل الحب مثلاً ، فالحب يجرّدنا من ذواتنا دون أن نشعر ، إنك بهذه الصورة العميقة ، لست كما نعرف ، تتحول إلى شخص آخر ، دونيّ أو فوقيّ ، حسب ما تقتضيه مصلحة الحب هذه ، لو أخذنا الحب مثالاً راجحًا ، مختلفًا عمّا تكونه عند عدم شعورك به .

وأحيانًا ، قد تجد لهذا التخلّي دافعًا مهمًا ، أو بالأحرى ، إنك

لا تتخلّى عن ذاتك إلا عندما يكون هناك دافعٌ ملحٌّ ، يشدّك بقوّة لتكون شخصًا آخر ، أو شخصًا لا يظهر إلا لذات الأسباب ، التي هي في الحقيقة أقوى منه ، لذات المواقف التي قد تحدث ، فالمواقف هي التي تترجم السلوك ، وهذا ما لا نسعى إليه برغبتنا ، فنحن في الغالب ، نحب أن نكون كما نحن ، بلا زيادة أو نقصان ، وهذا الأمر تحديدًا ، ليس بمقدورنا تنظيمه .

وعلى ذلك ، فالشخص الآخر ، الذي هو أنت في الحقيقة ، لكنك لا تعرفه ولا تراه إلا نادرًا ، بل قد لا تعرفه ولا تراه مطلقًا ، يمكن لأي إنسان أن يراه فيك ، إنني في أوقات كثيرة ، أشبّه الإنسان بالشمعة ، ولدي اعتقاد راسخ تجاه الشمعة أنها لا تدرك أو لا تعرف بأنها مشعّة ، وأن عملها هو أن تفني نفسها من أجلنا ، إنها تشعر أن هذا عملٌ طبيعيّ تقوم به ، وعملها الأوحد ، لكننا نحن الذين نلتف عليها ، كالحلقة ، ونستجدي ضوءها ، ندرك تمامًا ، أنها مشعّة ووضّاءة ، وأنه لا حاجة لنا بها لو لم نحصل على نورها ، كذلك الإنسان ، لا يرى نفسه إلا بواسطة أشخاص آخرين ، يخبرونه أي شخص هو قائم عليه ، من خلال ما تقتضيه المواقف والدوافع .

كاد وأوشك

سيجيء ذلك اليوم
أو ربما جاء!
الذي تتحوّل معه حياتك
في أقل من لحظة
إلى شيء آخر
وتسير على منحى آخر
وفي إغماءة سريعة
تشعر أنك كبرت
فجأة وبلا سبب . .
وعمرك الآن ستّ وسبعون
بعينين حائرتين
تحدّق في المجهول
ويلف عليك بسرعة البرق
شريط السنوات الماضيات
وبهلع ملحوظ
لا تعرف ما الذي حدث
ونقلك من هناك
إلى السادس والسبعين
من عمرك؟

سيجيئك اليوم
الذي تشعر معه
أن الخسارة والرّبح صارتا شيئًا واحدًا
وأن ما يهمك الآن
هما السّلامة والنّجاة
لأن الطوفان
ارتفع ودنا
وشارف ليجرف كل ما حولَه .

عائق

لا شيء نريده ،
إلا ويفاجئنا أننا لن نحصل عليه ،
كذلك كان ما أردناه ،
أهو خلل بنا . .
أم خلل بما نريده؟
كتلك التي نكون في الطريق إليها
أو تكون في الطريق إلينا
دون أن نعلم!
إما أن يحدث ما يعيقها
أو يحدث ما يمنعنا من الوصول إليها؟
ثمة ما هو كجدار عازل
شفاف وغير مرئي
يحول بين رغباتنا وذواتنا
لا نضعه في الحسبان
هو أقسى من الرّغبة
وأقوى من الذّات!

تضرّع

إلهي ،
املأني بك
أوّلاً وأخيرًا . .
ثم جنّبني عثرات الطريق
أن أدهس وردة دون إدراكي
أو أقتل نملة بالخطأ تحمل الطعام لصغارها
أو أقول كلمة طائشة
تخدش أذنًا مصغية تتمعّن في مقولتي .

إلهي ،
إن الإنسان الذي تحبه ، تبتليه
لكنك تجزيه بالمغفرة وقربك
تزرع في قلبه حبك
يطمئن وهو يسير في طريق موحش
لأنك معه!

إلهي . .
لا تجعل سعادتي كفيلة بأحد

طمئن خوفي وساعدني ،
فإني لا أستطيع أن أشقّ الطريق وحدي!

إلهي ،
الأصدقاء . .
جنّبني ما يعتقدونه بي ولم أفكّر به
المكشوفة لهم سوءتي
من آتٍ لأسبقهم بالعذر
فتأخذهم العزّة بالإثم
ويوبّخوني!
من في لحظة خطئهم ، يطلبون الصفح
وفي لحظة خطيئتي
تجيئهم عِصمةُ الأنبياء
من يحملون الشّوك
ويقدّمونه كما يقدمون الورد

إلهي ،
احمني من قلب يحبّني ويؤذيني
عُمّ الكون بأشخاص يوالوني
يمنحوني حبًا لا رجاء فيه
جنّبني البلاء

وما دام له أن يحدث
فامنحني مزيدًا من القوّة لمواجهته

إلهي
لا تجعلني شيئًا يرهق أمي!
إنها حنونة دائمًا
أضع يدي على الأريكة ؛ فتزيح يدها
عظيمة وتحبّك كثيرًا
فلا تتركها وحيدة وحائرة!

إلهي ،
لم أقل شيئًا ، لكنك تسمع ما أخبّئه
أصلح ما بيني وبينك
فإنه إن صلح ما بيننا
صلح ما بيني وبين الناس
سدّد نِبَال حسناتي
قُل لذنبي : «لا تكن»
فإنما أمرك إذا أردت شيئًا أن تقول له
«كُن فيكون» .

«إلهي ، حين تراني ضائعًا وحائرًا ، أمسك بيدي ، نوّرني بالبصيرة ، واجعلني حيث تشاء ، ومهما كان صعبًا وشاقًا وطويلاً ، فلسوف يريحني أنه اختيارك» .

صوت - LXXXI

اذهب إلى الله، ماذا تنتظر؟!

لا تخف، حيث تذهب، فالله هناك موجود، ينتظرك، وينتظر منك أن تذهب إليه، إنه في كل مكان سبحانه، معك الآن، هل تشعر به؟ هل تحس بهذا الاطمئنان في داخلك؟ إن الله من أودعه فيك، لأنك معه، وحين تكون مع الله، فإن الله يكون معك، الله أكبر من أن يتخلّى عنك، حتى لو تخليت عنه، هل تتصوّر؟! الإنسان ليس قادرًا أن يبقى مع الأشياء التي تتخلّى عنه، تُراه يحاول مرارًا أن يتمسّك بها، ثم في الأخير يستسلم، وينهزم، ويبحث عن شيء آخر يبقى معه ويحافظ عليه، ثم يفقده ويبحث عنه ويستسلم. ولكن الله تعالى، لا يتخلّى عنا برغم هذا التقصير.

هل تعرف الأمل؟! الذي يأتيك في الأخير، عندما تداهمك محنة شديدة، وكربة لا تنفرج؟! هل تشعر به؟ هل تعرف هذا الاستسلام، والرابط إلى شيء لا يمكنك إدراكه، لكنك تحس به، شيء ما يربطك مباشرة بالسماء، تشعر أنه ما زال هناك فُرجة، رغم نفاد كلّ شيء من بين يديك، شيء يفوق إدراكك وتصوّرك، هو الأمل، الظّن الحسن بالله، التفاؤل إن أمكن، هذا الأمل وحسن الظن والتفاؤل، لأن الله معك، لأنك رغم التخلّي عنه، الآن.. تذكّرك! سارِع إليه، الله لن يخذلك، إنه حليم عليك. تُراه

يبتليك ، لأنه يحبّك ، لأنه يراك تبتعد عنه ، ثم يريد أن تعود إليه ، أن تتوسّله وتطلب الشفاء ، أن تقول له : يا رب سامحني ، أنا مقصّر معك ، فيسامحك ، الله لن يهمّه فرحك وترحك ، ولكن يهمّه أن تكون معه ، تُراه يقول لك : كما أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال الله تعالى : «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقِرابِ الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بِي شيئًا لأتيتك بقِرابها مغفرة» .

هل تأمّلت هذا الحديث؟ هل شاهدت شيئًا لا تستطيع الكلمات وصف مداه ، تقف الكلمة مثلنا معظّمة ما يحدث ، وتظل مندهشة ، إنه وسيع للغاية ، ليس بوسعك إلا أن تحس به .

الله يريدنا أن نكون معه ، دائماً وأبدًا ، أن نتخلّص من الناس ومن أنفسنا ، ونُوكِلَها إليه ، أن نشعر به ، أن يساعدنا قبل أن نطلب منه ذلك ، لأننا معه ، ولأنه يعلم ما ننوي القيام به ، وحين يكون الله معنا ، فسوف يكون كل شيء معنا ، وسوف يساعدنا لأننا حينها نعمل وِفقَ مساعدته وقدرته وما يقدّره ، وتخيّل ، تخيّل معي ، أن تقوم بعمل وتعرف أن الله بجوارك يساعدك ، لأنه معك . أليس في الأمر فلاحٌ وطمأنينة؟!

هل تعرف مديرك في العمل؟ أو أستاذك في الجامعة أو المدرسة؟ حين تريد منه شيئًا ، فإنك تذهب إليه ، وتحاول كسب

مرضاته ، لتحصل على ما تريد ، لأنك مقصر دائماً في أدائك وقمت مضطرًا لتبذل الآن أقصى ما تستطيع لأنك تريد شيئًا ، حتى تحصل عليه ، ثمّ تعود إلى تفريطك! ، لو كنت مع الله وأيقنت مخلصًا أنك معه فإنك ستطلب الله أوّلا ، لأنه معك وينتظر أن تسأله ، والله هو من سيأمر رئيسك أن يعطيك ما تريد ، دون أن تشعر أنه أعطاك ، إنه ليس فضل الرئيس ، ولكنه فضل الله .

سامحنا يا الله ، لأننا نتصرف معك بطريقة لا تليق ، ولأننا عندما نحزن ، نسند همومنا إلى غيرك ، ثمّ إذا ما أيقنا أنّهم لن يقدّموا لنا شيئًا ؛ عُدنا إليك .

«فلننهض نصلّي الآن»

أصلي

لأغتسل من ذنوبي
وأطرد الهمّ وعيوبي!
وأواجه بالرّوح تعب ذاكرتي الهزيلة!
التي تركض مثل نهر
يجري وينساب
مثل جيشٍ من النّمل
غاضب ومستاء!
ينهلْ
من الأعلى إلى الأسفلْ!
يندفق دفعة واحدة ،
مترابطًا ، متماسكًا ، متّحدًا
كأنه موج بحرٍ هائج معتَلْ!
حيث لا يصطدم بما يعيق حركته
يجري من هناك إلى هنا
من هنا إلى هناك
ويزيل في انهماره الغدير الغدَق
كلّ شائبة علقت في الذاكرة
وكل دبق!

أصلّي
كلما سافر صوتي إلى الأبد
كلّما طوّقني الصمتُ
واللسانُ انعقَد!
وضاع الكلام وضاع بياني!
وانحبست غصّة في حلقي
كالمظلوم!
وخرجَتْ من فمي
بعض تمتمات غير مفهومة ،
معدومة الإحساس . . . مقطوعة الأنفاس
لا تؤدي إلى السلامة
لا تؤدي إلى الشفاء!

ثمّ أطرق بابًا ، موصدًا
هناكَ . .
هناكَ في السماء!
ينسّق الحياة من جديد!
يردّ للشفاه
صوتًا غادر من بعيد!

يرتّب اتزاني . . فقد فقدته
يعيد أماني . . فقد أضعته

يغطّي سرّي
فكأنها كُشِفت عورته .

أصلّي
لأن الله ليس له وقتٌ محدّد للزيارة!
لأن الطّريق المؤدي إليه ،
مهما طالَ ، فإنه قصير . .
قصيرٌ جدًا
كجسر يربطُ بين ضفّتين قريبتين!
قريبتين جدًا . .
ليس به تزاحم ، أو تلاحم
أو غُمارة!

أصلّي . .
لأن أداة الاتصال الوحيدة بالسّماء . . هي القلْب
لأن الصّوت . . يخرجُ من القلب كنسك المتعبّد
كاعتكاف الزّاهدين عن الحياة
يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالأمَل والرّجاء ،
بالقشّة الأخيرة المرجوّة للغريق ،
حيثُ ما قبلها أو بعدها انتماء
يفوق قدرة البارعين على الوصف ،
انتماء النجاة!

«عليك أن تتذكّر دائمًا ، وأنت تقف أمام المرآة ، بأن الذي تراه ليس أنت ؛ إنها صورتك» .

صوت - LXVI

المرآة تخبئ الحقيقة، لكنها تظهر الواقع

بفعل الطبيعة ، أو العادة ، أو سمها إن صحت العبارة : الاشمئزاز من الوقوع في ذات الخطأ المحذور منه ، يستاء الإنسان ، من القبح بجميع أشكاله ، حين يرى الآخرين يمارسونه ، لكنه بذات الفعل في السابق ، يجد له المزيد من الأعذار ، حين يمارسه هو ، يملك التبرير لتصرفاته وأخطائه دائمًا ، هذا التبرير المعلّب ، جاهز للتقديم ، كعذر يسمح له بارتكاب المزيد من الحماقات ، ولذلك تجده يشكّ في الآخرين ؛ بناية على الطريقة التي يفعلها ، وحين نتأمل في الأمر ، بشكل عميق ، نجده لا يبذل إلا ما يستطيع لتقديم المساعدة ، ومن حسن الحظ ، أنهم يعتقدون بأنه يقدّم كل ما بوسعه .

يستحيل على كلّ شخص أن يرى في ذاته جزءًا فاسدًا ، أو يتوقع بشكل ما ، أنه إنسان سيّء ، بذات الأنانية التي يحملها في داخله ، أو لنعتبره بذات الصلاح الذي يشعر به حين يمارس فعلاً ما ، حتى لو كان يمارس فعلاً قبيحًا ، إن الشيطان الذي يتواجد في الطريق إلى عملٍ غير لائق ، يزيّن لمثل هؤلاء الأشخاص ، حتى يحوّله إلى عملٍ لائق ، بعيدًا عن إحساسهم بالتأنيب ، لذلك تجد كل إنسان ، يرى أنه أفضل من غيره ، وهذا الفضل ، الذي يشعر أنه ينفرد به ، هو سبب الفساد .

إن الإنسان عبارة عن كائن بداخل كائن بداخل كائن ، وكل يوم يشعر هذا الكائن بداخله بما يختلف عن شعور الكائن الآخر الذي يليه . بمعنى أنه عبارة عن مخزن ، يوجد بداخله أشياء كثيرة لا أحد يعرفها ، تفسيرات كالطلاسم تتشكّل بصورة مكنونة لا أحد يدرك مفهومها غيره ، ولا يجب على أي كائن من كان أن يعرفها نيابة عنه ، حقّ له وحده أن يحتفظ بها ، سواء على صعيد الخير أم صعيد الشر ، ولا ينبغي لأحدٍ أن يكتشفها إلا بواسطته . لذلك كل إنسان له كيان مستقل ، مستقل تمامًا عن الآخر ، وعندما نجد من يحاول أن يكون هو نفسه الآخر ، فإنما يبرهن لنا بأنه يسعى لإتلاف ذاته .

دروس في الخطأ

في مفهوم الخطأ ، هو ما حدث بشكل غير مقصود ، لذلك نحن نشعر بالأذى كثيرًا عندما يتعاملون مع أخطائنا ، وكأنها شيء تعمّدناه .

هو يشعر بالأذى ؛ لأنه لم يكن يريد أن يخطئ ، وأنت تشعر بالأذى ؛ لأنك لم تتوقع منه ذلك .

حين نتعامل مع الناس على اعتبار أنهم لا يخطئون ، ثم نتفاجأ بأنهم قد أخطؤوا ، فهذا خطؤنا نحنُ .

كل خطأ ، تعمدناه عبارة عن خطأين . حين فكرنا به ، وحين اقترفناه .

من الخطأ ، ألا نستفيد من الخطأ .

مهما كان ، لا يدرك أي مخطئ أنه على خطأ .

ربّما يدفعك الخطأ ، لتصل إلى الصواب ، بشكل ملحوظ .

دائمًا ، ما نرتكب المزيد من الأخطاء ، على أنها المرّة الأخيرة .

كل خطأ ، هو قصور في الفهم .

ما يفاقم الخطأ ، ويحدث مشكلة كبيرة ، اعتقاد كل مخطئ أنه لم يخطئ أو لم يكن سببًا في ذلك .

إنّ الصواب ؛ هو أن تظنّ أنك على خطأ .

قد يدفعك الخطأ لتنطق بالصواب .

إن تقبّلنا للإساءة ، فيه نوع من الإساءة .

يمكنني أن أنسى إساءة المسيء لي ؛ لكنه ليس بوسعي أن أنسى المسيء نفسه .

القدرة على رد الإساءة ، يعتبر نوعًا من الإساءة ، أما القدرة على مواجهتها ، فيعتبر نوعًا من السلام .

محاولتك للإساءة إلى الشخص الذي أساء في حقك ، تعني بشكل ما ، أنك شخص يستحق هذه الإساءة .

دلالة الإساءة ، تكمن في شعور المخطئ ، بأنه لم يخطئ على الآخر .

ما يدفعنا للخطأ ، أننا نريد الصواب .

التبرير ، يلغي وراءه إساءة مبطّنة ، وعدم الاعتراف بها ، يظهر معه شعورك بالمسكنة ، وشعورك بالمسكنة ، يبرر لذاتك أنك مجني عليه .

من مؤشرات أنك على خطأ ، عدم اعترافك بالخطأ .

في احتماليّة الصواب ، أرجّح كفّة الخطأ .

سامحوني . ليس لأنني أخطأت عليكم ، بل لأنني سوف أخطئ مرّة أخرى .

الخطأ لا يمكن تصحيحه ، بل يمكن مجاوزته . مجاوزته ، لا تعني عدم اقترافه . وعدم اقترافه ، لا يلغي عدم الوقوع فيه .

غالبًا ، يستمر الخطأ ، لأن هناك أكثر من حل .

إذا شعرت أنك أسأت إلى إنسان ما ، فهذا يعني أنك قد أسأت إليه حقًا .

عدم اعترافك بالخطأ ، خطأ آخر ، واعترافك به ، خطأ أيضًا . وسكوتك عنه ، خطأ ثانٍ ، لأن كل ما تفعله بعد وقوعك فيه ، هو تبرير جديد ، لا يُلغيه .

تعتقد الأغلبية ، حين تبادرهم بالاعتذار ، أنهم على حق .

«متعة كافية ، أن تغمض عينيك ، وتشاهد ذاتك تلهو في مكانٍ آخر» .

صوت - LXII

لا شيء يزول، إنه ينتهي فقط، وبشكل ما، يبقى

بإمكانك أن تتصور موقفًا دون عناء ، أن تتخيله بنفسك دون الحاجة إلى موقف حقيقي وجاد بالفعل ، بوسعك أن تمارس جميع الأدوار حيال هذا الموقف على وجه التحديد ، وغيره على وجه العموم ، الموقف الذي قمت بدورك بصنعه ، ولنأخذ على سبيل المثال : أن تتألّم - هل يا ترى ستشعر بالألم؟ هل ستحس به يطرق قلبك؟ لأنك تصوّرت موقفًا فحسب؟ . لن تشعر به ، بصورة واضحة ، لأنه ليس حدثًا حقيقيًا ، إنها مجرد خدعة قمت بصنعها ، لكنك تريد أن تصدّق نفسك ، سيناريو مؤقت قمت بتخيّله ومشاهدته ، مفقودة من الحس والتواصل ، ستوصلك بكل تأكيد إلى نتيجة خاطئة ، وغير مرغوب بها .

الخيال ، يقودنا بشكل أو بآخر إلى الإحساس ، الإحساس الناتج عن هذه المخيّلة التي تعمل لصالحه ، حين تتخيّل حدثًا ليس موجودًا ، أو موقفًا على سبيل المثال ، تختلقه بعد تدخّل مخيّلتك ، فإن الأمر لن يتعدى عن كونك تركّز في مشهد من خلال أفكار وشخصيات قمت بتخيلها ، على شاشة علّقتها على الذاكرة بأدوار قد تبدو فيما تظهر كاملة تؤدي بك إلى مشهد خالٍ من الإحساس .

على الوجه الآخر ، حين يكون المشهد حيًا وحاضرًا في مخزن

الذاكرة ، ثمّ قمت بالتفتيش عنه وأخرجته كما هو ، عبر أفكار وحواس عديدة ، أخرجته من الماضي ، فإنك بدون إدراك ، ستجد نفسك تنقاد مع المشهد ، إلى الإحساس به ، ولن يكون ، بالطبع ، إحساسك به كما لحظته التي حدثت هناك ، لكنك ستشعر به يؤلمك ، وكل حدث مهما كان حزينًا أم سعيدًا ، يؤلمنا فور انتهائه ، أو عند تخيّله ، هل تفهم ما أقصده! ؟

يمكننا أن نبرهن ، وبشكل محسوس تقريبًا ، بأن الذاكرة تعمل لصالح المشاهد المخزّنة بداخلها ، العالقة بها ، والمخيّلة تعمل لكل المشاهد غير الحاضرة من قبل ، التي نتصوّرها نحن بواسطتها ، لذا فالإحساس قادم من الماضي ، ويعمل بواسطة الذاكرة أكثر مما يعمل مع المخيلة ، لأن إحساسها لاغٍ ومندثر ، وليس هناك أي وقود لتشتغل به .

***

تعني الذاكرة الجيدة ، قدرتها على تذكر جميع الذكريات ، الحزينة والمؤلمة والسيئة ، مما يدل هذا في المقابل أن الذاكرة السيّئة هي التي نحن بحاجة إليها دائمًا ، وأعني بالذاكرة السيّئة «الذاكرة المهترئة التي قد يصعب عليها أن تتذكّر أحداثًا تؤلمها» .

إن الذكريات الجميلة هي التي سوف تصبح حزينة فيما بعد ، تلك التي قد يكون السبب الوحيد في حزننا هو جمالها الذي لم نعد نشعر به حتى الآن ، ولهذا السبب فإني لا أفضل إطلاقًا أن أكون بذاكرة جيدة يصعب عليها مراوغة الحزن الذي قد تجلبه .

حين نملك ذاكرات مهترئة أمام قضايا كبيرة ومؤلمة ، فإن هذا سيضمن لنا صحّة جيدة في جميع مواقفنا التي سنعيشها لاحقًا ، بينما تمنحنا الذاكرة الجيدة ، الدخول في دوامة من العذاب لفترة طويلة ، حتى تقذف علينا المزيد من الذكريات التي تؤرّقنا ، ولن نخرج بسهولة من هذه المعركة أمام هذه القذائف المتكررة .

بناء على ما سبق ، فيمكنني القول : بأن الذاكرة الجيدة هي الذاكرة السيّئة ، والذاكرة السيّئة هي الذاكرة الجيدة ، وفي أغلب الأحايين ، نكون بحاجة إلى مثل هذا الاعتقاد اللازم أن نأخذه معنا طويلاً ، وحين نريد أن نعيش بشكل طبيعي فإننا بحاجة أن نواجه ذكرياتنا بذاكرة مهترئة ، لأنها تملك عمرًا افتراضيًا أكثر ، وتملك القدرة في مواجهة الذكريات بكل بلادة ، ومثل هذه الذاكرة ، نحن بحاجتها كثيرًا ودائمًا وأبدًا .

«على الإنسان أن ينسى ؛ ليرتاح ؛ أن يرتاح ليصبح سعيدًا ؛ أن يصبح سعيدًا ؛ ليشعر بالحياة ؛ وأن يشعر بالحياة ؛ ليقدم شيئًا جميلاً»

صوت - LXIII

نُبوءة

حين تريد أن تطمئن ، عليك أن تخمن الصورة الأخيرة ، لا تسمح للصورة الأولى بأن تخدعك ، إنها دائماً تأتي جميلة ونظيفة ، مثلما هي كذلك ، عليك أن تسيء الظن أحياناً لتتأكد من رؤية الصورة بوضوح ، إن المرحلة التي نبدأ بها زخم شيء ما لا تكاد تكون جميلة لأننا نراها كذلك ، أو لأن ظاهرنا يخبرنا أنها كذلك ، إننا نعكس غالبًا ما نحن عليه ، لا يمكنك أن تبدأ من الأخير ثم تقيس ، هل تبقى أم تزول؟! ولكن عليك أن تأخذ بالاعتبار أن كل ما يحدث له فترة صلاحية ، لا يمكنك أن تجد على سبيل المثال إنساناً صالحًا إلى الأبد ، أنا وأنت أيضًا ، ندخل تحت هذا الجدل المقزز ، ولكن لتثق فيما أقول ولا تستسغه ، هذه هي الحقيقة عزيزي ، كل ما هو حولنا ومعنا ، سوف ينتهي ويفسد ، مهما دامت صلاحيته ، ربما الآن ، أو بعد قليل ، أو بعد زمن طويل ، سيفسد ، كن واثقًا مما أقوله لك الآن ، لا أضلّلك ؛ ولكني أقول الحقيقة التي لا تحب أن تسمعها ، إن الصورة الأخيرة هي الحقيقة ، التي يجب أن تحدث وتؤمن بها ، وليس كل ما لا يعجبك بالضرورة يصبح سيئًا ، لكنك سوف تراه كذلك ، من وجهة النظر التي تعود إليك ، إلى ظنونك وأفكارك ومعتقداتك ، وأحيانًا إلى التجارب التي خضتها سابقًا ، لن أقول لك استمر ، أو توقف ، لترى ما يجب

عليك فعله ، لأختصر ما تريد سماعه في الرغبة للتقدم ، والتخمين ، فعقبة الإنسان تبدأ من ذاته ، مرورًا بالآخرين ، انتهاء لما يريد أن يراه ويصل إليه .

***

إننا في أحايين كثيرة ، لا نشعر بالرضى عن أنفسنا إلا بعدما يأتي إلينا الناس ويقولون لنا أشياء ترضينا ، فترانا نظل منتظرين لفترة طويلة أو ما دون ذلك ، إلى كلمة أو كلمتين ، متعطّشين إليها ، متلهّفين أن يباغتنا بها شخص معنيّ ، يلفظها على مسامعنا بأي طريقة ، دون أن ننتبه حتى لكمية المشاعر فيها ، إننا بحاجة دائماً إلى أي إنسان يقع كالحد الفاصل بيننا وبين أنفسنا ، يدلّنا إلى ما يجب علينا فعله ، وذلك لأننا حتى الآن لم نجد طريقة مناسبة لنرضى عن أنفسنا بأنفسنا ، وما لا يقل سوءاً من هذا ، ويزيد الأمر بؤسًا ، أننا لا نعرف ماذا نريد تحديدًا ، تجدنا نحاول الوصول لإرضاء أنفسنا فحسب ، وقد يكون هذا سببًا كافيًا لعدم رضانا .

حين يملك الإنسان القدرة على الاختيار ، وخصوصًا في عرض ما يشاء من أفكاره ، فإن ميوله في الأخير ، يبقى واحدًا . في ظل المحافظة على شيء ما ، يخسر مرغمًا أشياء أخرى ، قد تكون ثمينة أو ما دون ذلك ، لا يدري ، ولا أحد يدري ، لكنه لا يستطيع المحافظة على الاثنين معًا ، ليس لأنه لا يستطيع ، لو تمعّنا قليلاً ، ولكنه لا يملك ذات القدرة ليستقلّ بشيئين معًا في وقتٍ واحد ، ومن هذا المنطلق ، عند إصرارنا على التمسّك بما نريد ونرغب ،

تجدنا من دون قبول ، مضطرين ، للتخلّي عن أشياء لا تقل أهمية عن ما نريده ، حيث إنه في المسافة الواقعة بين رغبتنا والحصول شيء آخر ؛ تخلق حيوات جديدة ، تتجدد علاقتنا بأشياء أخرى ، نفكّر بما هو أفضل ، نمنح أنفسنا مرة ثانية لإعادة القرار بين المحافظة والإهمال ، بين هذا أو ذاك ، لكننا لا نلبث طويلاً حتى تداهمنا رغبة التردد والمحافظة على ما في أيدينا ، رغبة الرجوع إلى الأول ، إنها لحظة قلقة مع النّفس ، نترنّح فيها للوصول إلى ما نريد ، فلا نحن نصل ، ولا نحن نكفّ عن القلق .

***

تريد أن تتخلّص من شيء يثقل عليك؟

- بالطّبع .

وهل تشعر أن لديك القدرة لتتخلّص منه؟

- سأحاول ذلك .

وإذا لم تستطع؟

- سوف يرهقني أن أبقى مثلما أنا باقٍ عليه الآن .

وهل ما أنت عليه الآن ؛ يرضيك؟

- بالتأكيد لا ؛ إنه أمر مرهق ؛ أن تشعر وكأن العالم يسير من عليك .

عليك أن تتخلّص من نفسك .

- أتخلّص من نفسي؟

نعم ، من نفسك .

- وهل تعرف طريقة جيدة ؛ أتخلص فيها من نفسي؟!

نعم .

- ما هي؟

أن تُخلّص نفسك من نفسك!

لأنك إذا استطعت أن تقوم بمغامرة جريئة كهذه ، فسوف تتخلّص ممّا يثقل عليك ، سوف تتخلّص من الآخرين ، إذا استطعت أن تتخلّص من مشاكلك مع ذاتك ، فإنك تستطيع أن تتخلّص من مشاكلك مع الآخرين ، لأن كل مشكلة تحدث لك مع الآخرين ، سببها مشكلتك مع ذاتك .

***

كيف يستطيع الإنسان أن يصل للخلاص؟ الخلاص من كل شيء علِق به ، وأعني من القلق والأرق ، من الهم والغم ، من الأسئلة والأجوبة ، ولنفترض حتى من سقوطه في وحل ، أو محاولة فراره من عضة أفعى؟

في الأولى بالنسيان ؛ وفي الثانية بالتجاوز . حسنًا ؛ كأني فهمت ما يرمزون إليه ؛ أو أحاول فهمه كما ينبغي . بالنسيان أو بالتجاوز .

إنّ الألم واحد . والخوف الذي يطرأ بسبب الألم واحدٌ أيضًا ، يتفاوت بهما إنسان عن آخر ، قد يزيد أو ينقص ، لكن الشعور بهما ثابت وباقٍ ، وما هو معروف وشائع عن الألم أنه يجلب الخوف ، لكننا لا نملك حياله إلا أن نخاف منه ، ظانّين لفرط تعاستنا أنه قد

يزيل ما نشعر به ، ثم نكتشف أنه قد تفاقم . الخوف يفاقم الألم ، لا يطرده .

لاشكّ أننا نُغالي فيما نشعر به ، ونعتقد في غالب الأحيان أن مصيبتنا هي التي بإمكانها أن تهوّن على الآخرين مصائبهم ، فبمجرد النظر إلى ما وقعنا به ، فإنهم سيتجاهلون عمق الألم الذي أصابهم ، بل تُرانا نتحدث عن آلامنا وكأنها الفريدة والأخيرة .

لا يُمكن للإنسان أن يتجاوز ألمه ، أو يتألّم لأنه يشعر بالمرح مثلاً ، أو أن لديه طاقة هائلة يستوعب فيها قدرًا كبيرًا ليحمل في داخله كل ما قد يضيّق عليه . إن الإحساس الذي نشعر به هو الذي يؤلمنا ، مدى تعاطينا مع الفكرة التي سببت هذا الألم ، هو الذي يرهقنا ويتلفنا أيضًا . فنحنُ نتألم لأننا نشعر به ، وقد نمارس دورًا مستعجلاً كالكتابة نفرّغ من خلاله الكهرباء السالبة التي تشحننا ؛ آخرون يفرغونها بالبكاء ، غيرهم بالرسم ، بعضهم بالبلادة ، تصوّر ؛ بالبلادة! ، ثمة من يفرغها بالنوم أو الصيد ، بالعبث ، أخيرون مهمّون جدًا ، أقوياء ، يواجهونها بالنّسيان . لأن النسيان هو الشفاء ، وفي عمقه ، يوجد الخلاص والشّفاء التّام .

لكنها ولتكن درجة عالية من الصدق ؛ فيما يبدو أن كلامي الذي سأقوله الآن ؛ فجًا وصادقًا ؛ «لكننا نشعر أكثر من اللازم ؛ لشيء ليس باللازم أن نشعر به» غير أنه ضعفنا المطلق ؛ وقدرتنا المقيّدة .

انعتاق

التّحرر ،
هو ألا يعرف اسمك أحدٌ
ألا يكون لديك اسم إطلاقًا
لا ينادي عليك أحدٌ
لا تناديك والدتك ،
أو حمّال الحطب ،
أو جارتكم الصغيرة!
لا يناديك البائع
لأنك لم تدفع النقود
حين خرجت مستعجلاً
التّحرر ،
هو أن تكون بلا هويّة
لا تهمك مفاهيم القبيلة
أو قوانين العادة!
لا تشعر بالخوف
حين تسمعهم يتخافتون باسمك
وحين يتناجى اثنان
تدرك تمامًا ،

أنك لا تعنيهم
وأنه ليس لديك اسم
وأنه ليس لديك هويّة!

1980-2015

بالفعل ، فإنه زمان رديء
غريب وموحش ونادر ومخيف
القاسي يحابي القوي
القوي يلتهم الضّعيف
العالم يدمّر بعضه بعضًا
والخراب هو المسيطر .
الطيور ، تهاجر إلى عوالم أخرى
بسبب الدخان المنتشر في كل مكان
الأبرياء يُقتلون ، ثم يرصونهم فوق بعضهم
كما لو أنهم يكنسون القمامات!
الحب في زمنٍ كهذا ، يخيف
إنه لا يجيء خالصًا
إما ينم عن كره خالص ، أو مصلحة قادمة
الرحمة ، لم تعد موجودة إلا في قلوب الأمهات
لسان حال الناس يردد في صدورهم :
«نفسي نفسي»!
النظرة الأولى لم تعد بريئة وخاطئة
الكلمة الجميلة لم تعد مريحة وصادقة

ها هم ينطقونها بأفواهٍ يملؤها الكذب!
الهدف لم يعد محدداً مرسومًا
نواصل السير برغبة في السلامة
وليس الوصول
الصمت لم يعد تعبيرًا عن الراحة
بل غابة تحترق في الصدور!
العيون مثقلة بالدموع
الكلمات تخرج ، ولا تجدي نفعًا
والأيادي على القلوب متوجّسة ومستعدة
مما سيحدث الآن أو بعد قليل!

«ما تؤمن به ، يختلف عمّا تشعر به ، يختلف عمّا تقوله ، يختلف عمّا تعتقده ، يختلف عمّا تريده ، يختلف عمّا تتمناه ، يختلف عمّا أنت بحاجة إليه» .

صوت - I.XXV

حين يصبح محذوراً، ما هو عادي

في ظل الحزن ،
كانت السعادة ترافقني .
كنت أشعر برغبة في البكاء ،
لكنني لم أبكِ ،
كنت حزينًا ، حزينًا فقط ،
لأن السعادة كانت ترافقني!

الحياة تمنح الألم ، الألم يعطينا القوّة ، القوة تزرع الثبات ، الثبات يعلّمنا الصبر ، الصبر يخفّف الأحزان ، والأحزان ديدن الحياة ، لا ترمومتر للحزن ، لا توجد له درجة تجمد أو درجة انصهار ، لا أستطيع أن أكتشف نسبة مئوية له ، إنه يأتي هكذا ، إما هادئًا كضيف خفيف ، لا يمكنك أن تشعر بالوقت الذي يقضيه بجوارك ، وإما مستعدًا لقتالك ، لافتراسك ، جاهزًا للقضاء عليك ، أما الحزن ، فإنه حين يتحوّل إلى الألم ، إلى الإحساس بشيء يغلي من الداخل ، ويصهرك ثمّ يؤذيك ، كأنك تترنّح في هوّة ما أو كأن شيئًا ثقيلاً كبناية ضخمة تسقط عليك ، فيبدو الأمر مختلفًا ، إن هذا الإحساس الغائر ، الذي يخلفه الحزن ، هو الخوف ، وينتج عنه هذا الأذى وعدم تقبّل ما يحدث من صراع ، أما حين يجيء

هكذا ، حزن خالص ، يمر كالنسمة ، فعليك أن تقتنع به وتتصالح معه وتروّضه ، حتى لا يتحوّل إلى كآبة مستمرة وخوف .

لطالما اعتقدنا بأن الحزن يرتبط بالبكاء ، ودلالة كل شخص حزين هو أن نراه يبكي ، وفي الحقيقة أن الحزن شيء والبكاء شيء آخر ، فالبكاء بحد ذاته ، أحيانًا ، لا يدل على قسوة الألم ، فحين نرى شخصًا ما يعتريه الحزن ثمّ أخذ من فرط حزنه يبكي ، فإننا نتصوّره يقوم بفعلٍ غير لائق ، وقسوة الألم من جبرته على هذا التصرف ، وعليه أن يهدأ حالاً ، مع أنه في صراحة مع ما يحدث ، يبدو هذا الأمر ، -أي البكاء تحديدًا- بالنسبة له ، شعورًا سعيدًا .

***

إن الإحساس بالحزن ، لا يؤذينا مثلما يؤذينا عدم إحساس الآخرين بأننا قد نحزن ، فتراهم ينفرون ويبذلون ما بوسعهم للهروب ، لذلك ننعت الذي يفرط في حزنه بأنه شخص متشائم وكئيب ، من دون أن نتفهم شعور الحالة التي يمر بها ، إن الحزن نوع من السكينة ، ولا يدفعنا إلى التلف كما نتصور ، إن الحمق والغضب هما ما يدفعان إلى ذلك . وغالبًا ، نتظاهر بأن كل شيء على ما يرام وجميل ، حتى يتجاهل الآخرون كمية البؤس التي تعترينا .

إن الإنسان بحاجة أن يخالف أهواءه التي يطلبها ولا يشعر بها ، فهو لن يذوق طعم السعادة إلا بعدما تعتريه مرارة الحزن ، ولن يعرف معنى سعادته إلا عندما يتربّص به الحزن ، وهذا قد يكون

سببًا في تضخم حزنه وعدم مجيء سعادته ، سببًا في شقائه .

تتلبّس النفس بكل ما لا تريده ، تتعلّق وراء كل ما لا تستطيع الحصول عليه ، إنها لا تتصالح إلا مع ما ليس ممكنًا أن يكون في يدها ، تبدو أحياناً كالطفل ، تحتاج إلى ترويضها حتى تتصالح معها ، إلى ملاطفتها حتى تقتنع بما هو لها .

***

ربّما من اللباقة إخفاء ما تشعر به عن الآخرين ، لكنك من دون علمك تؤذي نفسك كثيرًا ، يعتقد كل واحد منا باعتقاد خاطئ ، أن عليه أن يظهر عكس ما ينتابه ، إنها مشقة كبيرة أن تبرهن ما لا تشعر به ، فقد وصلنا إلى مرحلة مأساوية مع أنفسنا من أجل المحافظة على سلامة الآخرين ، فكم يبدو فعلاً منهكًا أن تتحامل كي لا تنهار أمام أحدٍ من الناس ، كم هو صعب أن تحترق من داخلك دون أن يرى أحد النار المشتعلة في جوفك إلا بعدما تترمّد ، إنه نوع من القسوة ، أن تتظاهر بسعادتك لأن ما يختزلك أعظم من أن تبديه ، ولأن ما تحمله لا يهم أحدًا غيرك .

علينا أن نكون رحيمين مع أنفسنا لا جزّارين ، أن نتحمل ما بوسعنا فقط ، وما ليس بوسعنا فليذهب إلى البعيد ، وليتسرب كيفما يشاء ، أن نحافظ على ابتساماتنا لأننا نشعر برونقها ، بعيدًا عن كوننا نخفي وراءها كمًّا هائلاً من التعب المهلك . يبدو لي كشعور دائم ، بأننا أقوياء في صنع ما نريد التظاهر به ، فنظهر مهزومين أمام ذواتنا ، مهزوزين جدًا ، نخدع أنفسنا بأنفسنا ، لأن ما

يجب أن نكونه أمام الآخرين هو ما أخفيناه عنهم ، وما يجب أن نكونه معنا ، هو ما أظهرناه لهم .

***

إنك لن تصبح سعيدًا لمجرد أنك خرجت في نزهة ، على النزهة أن تكون في داخلك أولاً ، لأن الشعور أسمى من الاعتقاد ، وما تشعر به عليك أن تؤمن به ، إن الانتقال من مكان إلى آخر ، ليس بالضرورة أن ينقلنا من تفكيرنا ، كذلك الجلوس بمفردنا في مكان ما ، هادئ ويبعث على الاطمئنان ، لن يُلغي تمامًا فكرة الضجيج التي نشعر بها ، لذلك الهروب من الذات ليس حلاً ، المواجهة ، وتحليلها ، وتفكيكها ، والعودة إلى السابق ، إلى البحث عن أسباب كامنة ينبعث منها هذا القلق المدوي ، حتى نستخرج سببًا واحدًا على الأقل يمكننا أن نعلّق عليه ما نشعر به ونواجهه من الأساس .

في أغلب الأحيان ، لا نعي ما نتأثر من خلاله ، من دمار نشعر به يطاردنا ، نحاول قلب إحساسنا إلى النّاحية الأخرى ، ننتقل إلى هناك ، وقد حملنا معنا كل بؤس كنا قد حملناه في وقت مضى ، دون أن نركنه في هذا الزمان القديم الذي هربنا منه . إن الإنسان أداة فعّالة من الحزن والبؤس ، بل ومقيد وضعيف من جميع النواحي ، يصعب عليه أن يجمع ويوفّق بين حياته ومشاعره ، فمثلاً ، يصعب عليه أن يذهب للخارج عند نفوره من أي إحساس

قد علِق به ، فتراه يذهب إلى هناك بعد أن يصطحب معه كل ما هو من الممكن أن يعكّر صفوه ، ويعرقل مزاجه ، بل وقد يختلق المزيد من النفور بينه وبين الحياة الطبيعية التي يراها في الخارج ، فيبتئس من كل ما قد يمر به ، ويشتم كل ما قد يعترضه في طريقه . لأنه بشكلٍ أو بآخر أضعف مما يكون فيه أثناء حالة ضعف ، إنه أضعف من أن يكون ضعيفًا ، لكنك - وعلى أية حال - تجده يقسو على ذاته بإظهار ما ليس فيه من قوة ، إن هذا الصراع الذي يفتعله إنسان ضعيف بحيث يبدو لك قويًا ، إنما هو أحد أبرز نقاط ضعفه .

***

حين نترك وراءنا مكانًا دائماً نزوره وقمنا ببعثرته ، وخرجنا لأننا انزعجنا من كركبة هذا المكان ، وأيقنا تمامًا أنه لن يأتي أحد إليه ويعيد ترتيبه ما لم نفعل نحن ذلك ، فإن المكان لن يتحوّل بمجرد خروجنا منه إلى شيء مرتّب ومنسّق . لقد فعلنا مع الذات ما فعلناه مع هذا المكان ، تركناها مبعثرة من الداخل ، وهربنا للبحث عن سكينة واستقرار ، وفي واقع الأمر ، نبدو منزعجين ، لكننا غير مبالين بما يحدث ، ونحاول أن نتظاهر ونخدع أنفسنا بأنه لا شيء مهم حتى نعود إلى وحدتنا . الداخل يغلب الخارج ، هكذا تقول العادة ، ومهما تظاهرنا بالهروب والانشغال بشيء آخر ، رغبة في النسيان أو عدم المواجهة ، فإننا نورّط أنفسنا وبصورة كبيرة ، في تلقي المزيد من الصفعات حتى تتفاقم ، وعلى هذا الأمر ، فإنه من

الأفضل لنا بشكلٍ عميق ومبهم ، حين نريد الهروب من شيء ما ، أن ننشغل به .

***

أجل ، سعادتي أريد أن أشعر بها ، وحزني أريد أن آخذه كاملاً ، ليس على أي أحد أن يأخذ حقًا من حقوقي ، ولن أسمح قبل كلّ شيء لأحدٍ أن يفعل ، فسعادتي تخصني ، وحزني مبلغ مطلبي ، وما بينهما رغبتي ، في الحصول عليها كاملة ، كيفما تشاء ، ومثلما تجيء .

هذا الحزن لي ، بفعل أخطائي ، وهذه السعادة من حقي ، بواسطة ما فعلت يداي ، وحين لن أحصل عليها كاملة ، فلن أسمح لأحدٍ أن يأخذ ولو جزءاً بسيطًا منها ، أو يأخذها بالنيابة عني ، ما ذنب هذا الآخر ، ليأخذ حزنًا في طريقه إلي؟ وما ذنبي لتذهب سعادتي ، وتروح إليه؟

نعم ؛ أريد للحزن أن يأتي طويلاً ، دافئًا وكثيفًا ، مهيبًا وصعبًا ، مرّاً كالقهوة ، مالحًا كالبحر ، وبعيداً كسراب أطارده ، اتركوه يصل طالما أن ملكيّتي مكتوبة عليه ، اتركوه يجيء طالما أنني صاحبه ، أريد أن أشعره وأشعر به وأستشعره ، أريد أن أحمله مثل صديقٍ حميم ، أو كدمية يلاعبها طفل ، أن أحاول تركيبه كما يحاول الطفل تركيب دميته ، حتى أتصالح معه ، ثمّ أسمح له بالذهاب ، بعد أن وعدني بلقاء قريب!

بالتأكيد ، إنها سعادتي ، فاسمحوا لها بالدخول ، افتحوا هذا

القلب فهي تعرف طريقه ، امنحوها الوقت والوقت فقط ، أريدها بكل لهفة ، أن تطغى فوق الحزن أو تبيت معه ، أو يمتزجان معًا ، أريدها مثلما تجيء ، باردة وحلوة ، عذبة وناعمة ، طريّة كأنها ملمس يد طفلة ، وماطرة كأنها أول الغيث ، أريدها تهطل بنفس غزارتها في صدري ، أن تحول هذا اليأس الراكد إلى نشاط مستمر ، أن تجعل من هذا اليوم البائس ؛ يومًا جميلاً تكرره ، أريدها أن تجلس بجواري حتى صباح اليوم التالي ، تنام وترتاح حتى تستيقظ ، ولضرورة ما ، تودعني ، مثلما ودعني حزنٌ كان قبلها .

أجل ، نعم ، بالتأكيد ، إنه حزني ، إنها سعادتي ، فامنحوني إياهما .

ما قلّ، يفي بالغرض

القليل من الضوء يكفي ، لتغادر العتمة .
القليل من الحب يكفي ، لتنمو في القلب شجرة .
القليل من الصمت يكفي ، ليتّضح التعبير .
القليل من التجربة تكفي ، لتبرهن الخبرة .
القليل من المعرفة تكفي ، لإدراك المهزلة .
القليل من التعب يكفي ، للإيمان بالضّعف .
القليل من القُرب يكفي ، لتزول المعاناة .
القليل من اللذّة تكفي ، لتمجيد الأبد .
القليل من التحديق يكفي ، لإصابة الهدف .
القليل من الرؤية تكفي ، لاستنباط الإدراك .
القليل من الطموح يكفي ، لضرورة المكابدة .
القليل من الإخلاص يكفي ، لتطهير الذنب .
القليل من الصّبر يكفي ، لحضور الفرج .
القليل من النّسيان يكفي ، للشعور بالشفاء .
القليل من الذاكرة تكفي ، لتعتيم الحاضر .
القليل من الضحك يكفي ، لبلوغ الانتصار .
والقليل من الخطأ يكفي ، لتمييز الصواب .

الوصول إلى الداخل

بالدّاخل

في الأعماق
يجتاحني حزن كثيف
في الأعماق
يمر من أمامي شريط طويل
يقف كالند ويصرخ كالمستغيث!
لا أستطيع فعل شيء ، هل تتصوّر؟
حتى الكلمة لم أعد أملكها
حتّى النظرة ، لا تخرج من عيني!
بعيدًا بعيدًا ، في مكانٍ قصّي
كمن شعر ، بأنه سقط من ارتفاع عالٍ
إلى هوّة سحيقة!
كمن ينتظر أن يصطدم بشيءٍ ما ،
أن يصطدم فحسب ،
أن يقف هذا الدوران!
كأني غصن مكسور
لكنه ما زال عالقًا في جذعه ،
أتدلدل ، أتهاوى ، ونفحة ريح صغيرة كفيلة لتوقِعني ،

من يعجبه منظر مهترئ كهذا؟
أشعر بالنّدم
على مواثيق منقوضة!

بالدّاخل ، في الأعماق
ثمة صوت يوجّه اللوم ،
ويشير نحو الأسى المرير
الممتد إلى مالا نهاية
الأسى البالغ
الملازم للحياة .

«سأترك أثرًا ، سأخلّد ذاتي» .

صوت – LXXVI

نسيتُ أن أبقى طفلاً

واليوم ، كبرتُ يا أمّي ؛ صرتُ أحزن بمفردي ، بضعٌ وعشرون سنة ، مرّت كلمح البصر ، أمضيت في مواجهة نفسي وقتًا طويلاً ؛ لم أستطع أن أتعرف على ذاتي كما يعرفها الآخرون ، لا أراها قوية كما يزعمون ، يحزنني أنهم يجهلون مواطن ضعفها ، ويؤسفني أنني حتى الآن لم أستعد جيدًا إلى مواجهة أحزاني كما أفعل عند مواجهة أحزان الآخرين ، إنهم يروني ساكتًا وفي اعتقادهم أن ليس لدي ما أقوله ، غير أني محشّو بالكلام والكلمات ، الجارحة وغير ذلك ، أضمرها في داخلي كي لا يشعروا بالقلق ، ها هي الكلمة تغادر من قلبي دون أن يصافحها أحد ، تذهب إليهم ولا يستقبلونها ، تقع أمام أعينهم ؛ ولا أحد يدنو ليلتقطها ، لقد كنتُ أعمى تجاه أخطائهم ، فقد كنتُ أمرّر الكثير منها دون أذى ، لطالما تصورتُ بفعلتي هذه بأنني على حق ، حتى عبروا بأخطائهم من فوقي . وحتى الآن لم أقابل في طريقي شخصًا سيّئًا ، كل الذين قابلتهم اكتشفتُ بأنهم أجمل مني ، ولم يخبرني أحد قبل ذلك بأن هناك أشخاصًا سيئين حيث لا أتفاجأ ، إنني في الغالب من ألاحظ هذا ، وحتى اللحظة لم أتعامل مع نفسي كما يجب ، لم أنهها عن شيء يقودني إلى الحظ المتردّي ، ما زلت أحملها وأتحاملها ، ومازالت تذعن لي بكل خيبة .

حين كنتُ صغيرًا ، حيث أخطئ ، كنت أعتقد أن الكبار لا يخطئون ، وحين كبرت ، حيثُ أصيب ، عرفت أني كنت مخطئًا ، وأنا هو ، ما زلت أكبر ، أسلك طريق كلّ الكائنات الذين سبقوني ، أفعل أشياء ما كنتُ في يوم من الأيام أتصوّر أن أفعلها ، أكبر كثيرًا لأتفسّخ من قناعاتي ، وأتخلّى عن تلك المبادئ التي آمنتُ بها في الأمس . فلما كبرت ، زاد الألم ، وزاد العناء ، كبرتُ علّني أنسى ، وما زلت أتذكّر ، كبرت وبداخلي قناعة أن غدًا أفضل ، وما زلت في الأمس . بضعٌ وعشرون سنة ، مرّت كلمح البصر ، ولم تذر شيئًا .

وإلى الآن ، الصعود على سلّم الأيام ينزف بعض المآسي ، لأن الحياة تبدو سخيفة وغير جادّة ، إذا لم يعترها شيء من الصعوبة والمغامرة ، حتى الفرحة التي تتم ، تأتي على شكل فرحة ناقصة ، لأن الفرحة الكاملة لا تتم ولا تأتي ، ولأنه لا شيء يأخذ طريقه في الاستمرار ، لا شيء البتّة ، فكل الأشياء تتغير ، وكل تغيير يناقض نفسه ، ومع كلّ تغيّر ، أشعر بالأذى . وحتى اللحظة ، أصبو لكيلا أشعر ، وهذا بحد ذاته يتطلب أن أشعر ، أن أشعر بما لا أريد الشعور به ، أن أشعر باللاشيء ؛ باللاأحد ؛ بالفراغ من حولي ، ومن داخلي أيضًا ، بالإحساس الساكن الذي أشعر به دائمًا ، ولا مناص ، لأن أي شعور قد أشعر به ، جميلاً كان أم قبيحًا ، سعيدًا أم حزينًا ، مريحًا أم مؤذيًا ، هو ليس من أجلي ، إنه من أجل أحد ما ، شيء ما ، ودوري أن أحسّ به ، يعبر من خلالي فقط .

يومًا فيومًا ، شيئًا فشيئًا ، ما كنتُه ، لم أعد عليه الآن ، وما

أكون عليه الآن ، لن يصبح هو أنا ، وبين ما يجب أن أكونه ، وما يراه الآخرون ، يأتي أنا ، الحقيقي جدًا ، صورتي التي لا يراها سواي ، ودوري الذي أطبقه كثيرا ، هنا أنا ، بكل عيوبي ومزاياي .

وها أنا أعود إلى ذاتي ، عُرضة للخوف ، ووجبة للقلق ، يعتصرني سؤال يغور في أعماقي دون أن تشفي غليله أية إجابة ، يجتاحني شعور من عرف متى سيموت تحديدًا ، أو من يريد أن يكون كذلك ، «الحياة جميلة» ، هكذا هي بالطبع ؛ لكنها ليست أمام هؤلاء المساكين ، الذين هم في معظم أوقاتهم ، يعانون منها ، تأكل من أفراحهم الأسئلة ، وتتغذّى على أحزانهم ليالٍ سعيدة .

أشعر بتوتر ، شعوري غريب هذه اللحظة ، مزاجي متعكّر ويتراجع للخلف ، كأني شجرة من فرط وَهْنِها سقطت حينما عبرتها الريح ، أريد أشياء لا تريدني ، وأحرص بالمحافظة على كل الأشياء التي سترحل ، في مكان ما يوجد قلبي ، هذا الذي ينبض بداخلي ليس لي ، محتار مثل غريب ، يزور لأول مرة بلدًا غريبة ، متضاد ، أجمع الضد بالضد ، ليعطيني أجوبة متناقضة ، مُتعب إثر سفر طويل في طريق ممل ، كأني صنارة صيد في قاعٍ لا توجد فيه الفرائس ، كأني ذلك الصياد الذي لا يحصد شيئًا ، لا يعود ولا يكسب ، في ذهاب دائم ، لا يبدأ ولا ينتهي ، بي شعور فارغ ومتذبذب ، كأني قطبان متنافران ، في وحدتي أشخاص مجتمعون ، وفي رأسي صور غائبة وحاضرة ، وعلى فمي مواويل حزينة ، وحيدًا ولست لوحدي ، أريد شيئًا غير أني أجهله ، أحب ذاتي لكنني لا أحملها على محمل

الجد ، لستُ معها كما يجب وليست معي كما ينبغي ، أخاف أن يمسسها سوء ، وأنا أكثر من يؤذيها .

***

لا هدوء لأيامي ، حين أسير ببطء وترو ٍ ، أشعر بشيء كالعَجلة يلازمني ، كأن من يدفعني من الخلف لألحق بما في الأمام ، وكأن من في الأمام يثبّط من عزائمي ، ويخبرني بأن هناك متّسعًا من الوقت ، وكأني أترنح في هذه المسافة القصيرة ، في الفجوة بين الخلف والأمام ، والرحلة متقطعة ، بحاجة أن أتحرر ، أشعر بنزاهتي ، أجلس لفترة طويلة متصالحًا مع ذاتي ، كالفترة التي أقضيها في عراك مستمر وغير متوقف . أريد أن أتقلّب وأنا نائم لأنني تعبت من جانبي الأيمن ، وليس لوجع اضطرّني لفعل ذلك . لا أريد من قلبي أن ينغزني بهذه القسوة ، وينسى بأنني صاحبه الوحيد ، وهمّه الجديد ، وعمره المديد ، عليه أن يحترمني ويقدّرني ويتصالح معي في الشعور ، لأنني أحمله كل هذه السنين دونما وجل . أريد أن أبقى وحيدًا مثل فكرة لم تخطر على بال أحد ، لقد تعبتُ من هذا الشعور الفارغ والثقيل على أكتافي ، أشعر أني بحاجة لئلا أشعر بشيء . أريد أن أفتح الصفحة وأنشغل بما يكون فيها ، لا بما يكون خارجها ، أن أبقى مثل ابتسامة عريضة أمام كوميديا قديمة ، لا يقطعني عنها إلا مشهد آخر ، أتوق إلى الاستقرار بداخلي ، إلى الحنان كما يبحث طفل عن أمه ، أتوق إلى التعرف من جديد على هذه الروح الشقية العصية ، إلى الاعتراف والمصارحة ، إلى إعادة البناء بعد الهدم ، إلى اكتشاف

ما الذي يمكنني أن أحصل عليه في أغوار النفس المتذبذبة ، المرتفعة تارة ، والمتدنية تارة أخرى ، ما هو السر الغادر في هذا الكيان المتماسك . أود أن أنشر حياتي أمام عيني ، مثل من ينشر غسيله فوق حبل ، لا شيء يخفيه ، أجفف حياتي ، أن أكون قادرًا على رؤية ما يخفى ، مستعدًا لإزالة الشوائب ، قادرًا على إعادة هيكلة هذا الجسد ، وترتيب ما تبعثر . أتوق إلى لحظة خلاص جديدة ، إلى اطمئنان طويل ، إلى مواساة حزن منسكب ، إلى تطهير هذه الروح حتى أصل لبلوغ ما أريد ، كما لو أنها معجزة حدثت ، أؤمن بأن الحياة تأتي دائماً عكس ما أريد ، فعندما أتأملها مرتوية ؛ يصيبها الجفاف ، وعندما أتأملها جافة ؛ تمطر ، كأنها تتعمد خيبتي ، لتمنحني ما أريد . أريد أن أتبدّل ، من حال إلى حال ، كما تتبدّل الحرباء مع أشعة الشمس ، أريد أن أتنفس ببطء ، مثل شخص يستريح ، أو على عجل ، مثل من عاد للتو يستعيد لياقته ، لا أريد أن أبقى هكذا ، كأني أرض لم تعد صالحة لشيء ، فتراكمت الليالي على طيّاتها ، دون أن يبحث أحد بداخلها على مأمن له . أريد أن أحسم الأمر ، أن أعرف ماذا أريد وما لا أريد ، أن تنتهي الأشياء مثلاً دفعة واحدة وأفقد الثقة ، لست على استعداد تام ، لأواجه الخسارة مرة أخرى .

إنني على أهبة الاستعداد والطموح ، للتقدم والتغيير ، ليس بعيدًا عن مباغتات الأقدار ، وعن بؤس الأيام ، ولكني أطمح لمواجهة حياتي على شاكلة جديدة ، بهذا الحماس المصنوع ، رغبة في التغيير ، حتى يمكنني أن أتحمّل ما عساه أن يكون .

حظ

ما يحدث ، عكس ما أتوقعه .
ما أتوقعه ، ليس ما أريده .
ما أريده ، لا يمكن له أن يحدث .

ما يذهب ، يعود في شكلٍ آخر .
ما يعود ، يختلف عمّا ذهب .
ما يأتي ، ليس كما يذهب أو يعود .

ما أرفضه ، أحتاج إليه .
ما أحتاج إليه ، ليس هو ما أقصده .
ما أقصده ، لا أحد يفهمه .
ما أنساه ، مؤلم تذكّره .
ما أتذكّره ، عصي أن أنساه .
ما أحافظ عليه ، لا أعرف أين أجده!

ما أشعر به ، ليس هو ما أقوله
ما أقوله ، لا يشبه ما أشعر به .
ما أعانيه ، لا يشعر به سواي .

محاولة التصويب بعد فوات الأوان

أقاوم ، على أن أعيش حياتي هانئة
أمسح أثر سقوطي كي لا يتبعثر من يأتون بعدي
وأبرهن بألم يتدفّق «أن الحياة على ما يرام! »
ميّال إلى التفاؤل والأمل ،
وبوسعي أن أتخيّل الباب الحزين
مدخلاً للسعادة
وأصحّح فهم الشكوك الخاطئة
وأعتبر وحدتي خَلوةً مع النفس!
أحاول أن أبدو طيّبًا من مسافةٍ بعيدة
كخلف الباب مثلاً أو وراء العين
أن أحافظ على سلامة الآخرين
من عِلّة تنفجر في صدري!
أن أبدو شيئًا جديرًا
أن تزهر الكلمات التي أقولها
فأصنع من وجودي رائحة زكيّة
أن أكون شيئًا يستحق أن يفتّش عنه النّاس
أحاول أن أصنع مني شخصًا آخر
وكلما احتجت إليه ، وجدته أنا

أن أبكي مثلاً
فأتحوّل لصديقي الذي يمسح دمعتي
أحاول أن أكتشف مدى القدرة على تحمّلي!

آخر ما يمكن أن يقال

لا شيء مهم
ولا قدرة على الفهم
ولا شيء يستحق أن يفهم
سمعنا أن الصفعة التي لا تميت تقوّينا ؛ فصدّقنا
وسِرنا على الشوك حتى تمزّقت أحذيتنا!
لم أفهم شيئًا
ولا أريد أن أفهم
لا أعرف
ولا أريد أن أعرف
وأعرف أن ما يجري ليس جديرًا بمعرفتي
ولستُ حريصًا لمعرفته!
اتركوني بهذا الجهل
الذي لا أتحمّل عبء معرفتي فيه ،
ولتمضوا حيث درايتكم
تفتّشون عن خبرٍ كاذب
تتساءلون فيه!
لأني لا أريد إصلاح شيء
أريد إصلاح ذاتي أولاً

لأعود كما كنتُ طفلاً وحيدًا
لا أحمل بصدري أحدًا
أرد كلّ حزنٍ معي
إلى أصحابه!

مونولوج القلب والعقل

الأب هو العقل ، والقلب هي الأم .
من القلب تأتي الأفكار ، العقل محل لإعادة تكريرها فقط .

الإنسان ، الإنسان أولاً ثم العقل ، العقل هو الأساس ثمّ الفكرة ، الفكرة هي المحرّك ثم انقسامها : العظيمة والفارغة . ثمّ المضمون ، ثمّ المظهر .

العظيمة لأصحاب النفوس والعقول العظيمة ، تلك التي تحدث تفسيرًا في الأشياء والوجود في ما حولنا ، تلك التي لا ترضى أن تكون إلا أن تكون ، ثمّ الفارغة ، الفارغة للإنسان ، الإنسان فحسب ، دون العقل ، الإنسان الذي يبرهن لنا أنه يختلف عن البهيمة .

الإنسان العظيم تهمه الفكرة ، والإنسان الفارغ يهمه المظهر ، لا علاقة للإنسان إلا بالعقل والفكرة ، والمظهر لا علاقة له بالفكرة والعقل ، على الإنسان أن يتزيّن بالعقل قبل المظهر والصورة ، ليحصل على أفكار عظيمة ، ولكيلا يكون إنساناً بالصورة ، لا يحمل إلا عقلاً يختلف عن البهيمة .

***

القَلب ؛ في حقيقة القلب يستند على العقل دائمًا ، يجب أن يسير خلفه ، لأنه يجازف عندما لا يستأذن العقل ، يجازف نحو

شيء لا يدرك عواقبه ، ويخطئ في الغالب .

في حقيقة العقل ؛ فإنه رداء القلب ، مصباحه في زجاجته ، معطف يقيه من برد الشكوك ، ويحميه من سيل الأخطار ، ومن صالح القلب أن يكون قبله دائمًا ، القلب الذي يستند على العقل ، لا يقوى عليه شيء ، بينما العقل الذي يستند على القلب ، لا يخدعه شيء .

استخدم عقلك أولاً ، عقلك قواك الكامنة والخفيّة ، ومن ثمّ قلبك ، استخدمهما معًا في آن واحد ، إذا اتّحدا فإنهما يؤلفان القوّة ، وأضعف ما تكون عليه إذا افترقا .

***

بشكل ما ، فإن المواجهة الأولى لما يطرأ ، تكون عن طريق القلب ، هو خط الدفاع الأول الذي يقف في وجه الآلام والمواجع ، وما يجيء ؛ فإنه يبقى فيه ، مهما تظاهرنا بنسيانه ، فإنه يستقرّ هناك . سيّئًا أم صالحًا ، مُرًا أم حلوًا ، وأي نفحة بسيطة تهُبّ ، فإنها تنشره ، ومادام في القلب إحساس لم تفصح عنه ؛ بالكلام أو بالكلمات أو بالبكاء أو بأي طريقة شئت ، فإن هذه القوة التي تشعر بها ، هي في الأخير من سيتلفك ، ودائمًا ، مع مرور الوقت ، فإن القلب ، إذا مات ، يحييه ألمٌ جديد .

إن القلب ليحتاج إلى وقت طويل كي تبنيه ، ووقت أطول من ذي قبل كي يتألّم ، ووقت أطول من ذي قبل كي يستوعب جراحه ، ووقت أطول من ذي قبل كي تجعله قويًا ، ووقت أطول من

ذي قبل كي تحافظ على قوته ، ووقت أطول من ذي قبل كي يواجه بهذه القوة كل جراحه ، ولحظة واحدة كي يضعف ، وأقل من لحظة كي يموت!

***

صفحًا أيها القلب الضعيف ؛ لا تجزع!

ولتسامحني ، إذ تراني غير قادرٍ على الصمود أمام هذه الجراح ،

إنك تنبض في أعماق أعماقي ؛

أشعر بصبرك والدمار يعبرك!

لا تضعف أيّها القلب . .

لا تتراخَ ، لا تهزم ، لا تيأس ، لا ترتعد ، لا تغتم ،

لا تعجز ، لا تلين ، لا تتردد ، لا تذبل ،

لا تقنط ، لا تتعب ، لا تهترئ ،

لا تتألم ، ألمك يزيدني وهنًا

يجعلني هزيلاً مثل كسرٍ مجبور

نحيلاً مثل غصنٍ مكسور

لا تنحنِ!

أيّها الصلب لا تنكسر!

لا ينفد صبرك أيها القوي

قاوم ؛ بكبرياء الألم

أطفئ هذا السعير

واجعلنا نعيش!

مونولوج الضعف والقوة والهزيمة

تتكون القوّة من شيئين ، الضّعف والقوّة ، الضّعف باعتباره قوّة تسيطر عليك ثم تغلبك وتهزمك . والقوّة باعتبارها شيئًا صلبًا ، ذا طابع أشد صرامة ، يجعلك تسيطر وتتغلّب ، بالدّاخل يحدث صراع بينهما ، يتعاركان ، وأحدهما يغلب الآخر ، وفي الغالب ، فإن الضّعف هو الذي ينتصر ، هو الأقوى . لأن مقدار ما يؤثر عليك من الخارج هو مقدار ما لم تستطع أن تسيطر عليه من الداخل .

يظهر المرء دائماً بسالته ، حتى في أحلك الظروف التي تتطلّب أن يصبح أثناءها ضعيفًا ، أو تلك الظروف التي يدرك جيدًا أنه ليس بمقدوره مواجهتها ، لأنه ضعيف وهزيل للغاية ، لكنه لا يهزل! .إن ما يدفعه إلى هذا التظاهر القوي والمبالغ فيه ، هي قوّة الضعف التي يشعر بها في داخله ، وليس لأنه قوي على أية حال ، إنه ضعيف على كل حال . وقد تؤدي مثل هذه القوة المفرطة ، إلى إتلافه تلفًا شديدًا ، فيضطر أخيرًا إلى الاستسلام وعدم قدرته على مواجهة ما يحيط به .

***

الهزيمة هي الضّعف ، هي أسوأ ما يمكن أن يحدث لك ، أن تصبح في هزيمة مستمرّة ، مع ذاتك أولاً ثمّ مع الآخرين ، لأن الضعف أحياناً قد يسلّمك من الهزيمة ، والقوة أحياناً أخرى قد

تسلّمك لها . تخوض اللعبة بكامل قواك ، ثم عند المنعطف الأول ، حين يشتد الخصم ، يهزمك ، وتظل مهزومًا وبائسًا . لماذا؟ للتو كنت نشطًا وقويًا ، وبواسطة قوّتك التي دفعتك لهذه المبارزة ، هُزمت . لو أنك اخترت أن تصبح ضعيفًا ، ظاهريًا على الأقل ، لكنت متمسكًا بقوّتك وبعدم الهزيمة ، لأن الضعف ليس هزيمة ، لستَ جبانًا ، لكنك ما دمت تستطيع ألا تنهزم ، فافعل ، وما دمت تستطيع أن تخوض المغامرة ، بكامل قوّتك ، وتواجهها بأكثر من هزيمة ، فافعل أيضًا .

مونولوج النزاع

النزاع ؛ متى ما سمحت للآخر أن يحتلّك ، الرّعب ؛ متى ما رضيت أن تتنازل عن قلبك دون استئذان ، تُراك لن تفهم ما هو النزاع والرعب ، حتى يحتلّك ، حتى تُصبح آلة مسيّرة تحت ظروفه الخاصة ، لا تستطيع أن تقاوم من نفسها ، تنتظر مساعدة من الخارج ، وكل تزعزع يحدث بداخلك في مسألة ما ، يشير إلى أنك لم تؤمن بذاتك كما ينبغي ، أو أنك لم تمنحها مزيدًا من الثقة ، لأن الثقة هي الإيمان بقدراتك وبأن لديك القدرة على استيعاب المزيد من الصّعاب ، حيث إن كل مشكلة مع الذات ، تُحدث مشكلة مع الآخرين ، ولهذا السبب ، فإن أغلب مشاكلنا ، تنبع من ذواتنا .

حين تسلّم نفسك ، فإنك تخسرها ، تصبح الذات ليست لك ، ولن يستطيع أن يحافظ عليها غيرك ، تصبح حريتك شيئًا مقيدًا ، تشعر بأن هناك من يأسرك ، لأنك استسلمت لهذا الوهم الكبير ، وهذه هي ميزة الوهم ، أننا نصدقه أكثر من الحقيقة ، نعيش في المخيّلة أكثر ممّا نعيشه في الواقع ، نحاول جاهدين تطبيق ما نتخيّله مع أن الواقع لا يتوافق مع الخيال إلا ما ندر ، ولذلك ، على كل الأحوال ، ليس هناك من أساس صلب وحقيقي يمكننا الاستناد عليه ، إن جميع الأوهام التي نؤسسها بواسطة مخيّلاتنا ؛ معرّضة فيما بعد للانهيار ، ونحنُ معرّضون عقبها للكآبة .

ذاك هو سبب اضطرابك ، يجب أن تتحرّر ، أن تجد مبرّرًا وعلى الفور لما يحدث ، أن تخلّص نفسك من هذا الارتباط والتعقيد ، بفكرة بسيطة أو بحركة سريعة ، أن تشعر أنه ليس ثمّة ما يسيطر عليك ، أن تسحب نفسك رويدًا رويدًا من كل شيء إلى حيث مستقرّها بداخلك ، كأنك تفرّق شيئين متماسكين ، أن تعود إليك ، وتعرف من أنت ، لأن كل تصرف تقوم به يعبّر عنك ، وحين تتصرّف ضد ذاتك ، فإنك تعبر بالأذى عن ذاتك ، وإذا لم تستطع أن تنتمي إلى ذاتك ؛ فإنك لا تستطيع الانتماء إلى أي شيء آخر .

كل إنسان يعيش داخل منظومة عظيمة هي ذاته ، وما يزعزعه ، هو ما لم يتمكن من السيطرة عليه ، ولو استطاع أن ينقذ نفسه بنفسه ، فإن هذا في الأخير سيحيلنا إلى عدم الاعتماد على الآخر ، وعدم الاعتماد على الآخر ، سيحيلنا إلى نتيجة ترضي العالم ، سيحيلنا إلى السلام .

مونولوج الآخر

هو أنا ، حياتي مرتبطة به ، وحياته مرتبطة بي ، حزني يخصّه ، وحزنه يخصّني ، جرحي يأتي عن طريقه ، وجرحه يأتي عن طريقي ، ألمي هو سببه ، وألمه أكون سببه ، أظل في وحدتي مشغولاً به ، ويظل في وحدته يفكّر بي ، أهرب منه إليه ، ويهرب منه إلي ، أكون بعضًا منه ، وهو بعض مني ، يتعكّر المزاج من خلاله ، ويتعكّر مزاجه من خلالي .

الآخر أنا ؛ أستطيع أن أعكس صورتي في مرآته ، ويستطيع أن يفعل ذلك في مرآتي ، مكانه في العالم عندي ، ومكاني في العالم عنده ، حين أكون جزءاً من منظومته ، فإنه جزءٌ من منظومتي ، حين تشغلني فكرة ما فإنه الموضع المناسب ليحملها ، وحين تشغله فكرة ما فإنني السلّة المناسبة لأحفظها ، حين يضيق مكاني يتّسع لديه ، وحين يضيق مكانه يتّسع لديّ ، صورته حاضرة في ذاكرتي ، وصورتي حاضرة في ذاكرته ، لديه ما لا أستطيع تقديمه ، ولديّ ما لا يقدر على فعله ، صدري مستودع أسراره ، وصدره بيت أسراري .

الآخر ، أنا ، حين تضيق الذّات ، فلديه الوسع .

أنا ، الآخر ، حين تضيق الذات ، فلديّ الوسع .

الآخر ، هو الطريق ، إلينا ، ونحنُ ، الطريق ، إلى الآخر ، لأن في كل آخر ، جزءاً من ذاتنا .

مونولوج السلام

السلام ، السلام مع الذات ، أعني الاعتكاف بداخل النّفس ، الحرّية ، الاستمرار في تقديم الخير للذات وللآخرين ، على حدٍ سواء ، للحيوانات والجمادات ، لكل ما يعترض الطريق ، مصافحة الأشياء ببعضهما ، جلب النقيض مع النقيض ، ممازجة القطبين المتعاكسين ، عدم العنف ، اللاعنف ، ترتيب المجتمع فرادى ، لو فكّكنا المجتمع ، قطعة قطعة ، لوجدناه بهذه الصياغة ، فردًا فردًا ، وكل فرد عبارة عن مجتمع ، إن الفرد يشكّل خطرًا حينما يوضع في مكان خاطئ أو مكان لا يناسبه ، لأنه المشكلة ، هو العنف ، هو الخطر ، هو السوء حينما يتصرّف ضد مصلحته ، أو وِفقًا لمصلحته ضد مصلحة المجتمع .

التاريخ هو الماضي ، والماضي هو اليوم الذي نعيشه ، والحاضر هو المستقبل الذي ننتظره أن يحدث في الغد ، لا شيء يأتي من العدم ، كل ما نراه هو متشابك مع آخر ، له علاقة مبطّنة وليست واضحة للعيان ، حينما تفكّر في الماضي فإنك تهدم الحاضر ، أما حينما تفكّر في المستقبل فإنك تقوّي الحاضر ، تعزّزه ، تلك هي الفكرة التي تجلب التزعزع والنزاع مع الذات ، عدم الاستقرار ، وعدم السلام ، التفريط في الحاضر يجب أن نستبدله بالاستغراق والتأمّل ، التأمّل عبادة ، حينما أفرط في الذي بين يدي فإنني

أفسده ، وحينما أتأمله فإنني أمنحه قيمة كبيرة ، قيمةً تجعلني أعيه جيدًا ، إنه التأمّل .

بالتأمّل أصل للسلام والاستقرار ، وبالسلام أعود للتأمّل ، السلام يمنحني قدرة رهيبة على مصالحة البلوى حين تشتد ، يجعل الحياة سهلة المراس ، يعيد ترتيب الذات ، لو فكّكنا الذات كما فعلنا مع المجتمع ، لوجدناها بهذا المفهوم ، فكرة فكرة ، الذات عبارة عن فكرتين مركّبتين ، وإذا ما توافقت فإنه السلام والأمان ، أما حين تصطدم فإنه النزاع والقلق .

مونولوج الحرية

أعتقد بأن الحرية ليست في أن تفعل ما تريد ، أو تفعل ما تشاء ، في الوقت الذي ترغب ، هذا نوع من الفوضى ، هناك أشخاص لا يصلح أن يترك لهم الحبل على الغارب ، لا يصلح أن تعطيهم حرّيتهم التي يزعمونها ، لأنها تجعلهم مفسدين ويفسدون ، لا يستخدمونها وِفقًا لاحترام الآخرين ، بل يطبّقونها -من باب حرّيتهم- في الاعتداء على الآخرين ، فيرون أنهم ليكونوا أحرارًا ؛ فإن لهم كامل الحق في إيذائك ، والتعدّي على خصوصيّاتك ، وفرض آرائهم الشخصيّة على آرائك .

والحرية تكمن في عمق فهم الآخر ، في تلمّس حاجاته واحتياجاته ، في قول رأيك دون فرضه ، في عدم التعدي على حقوق الآخرين لأنها ليست حقاً من حقوق حرّيتك ، الحرية الحقيقية هي بدل أن تقدّم نفسك على الآخرين فإنك تقدّمهم عليك ، باستخدام حدّها الليّن ، الذي يدنيهم منك ، وليس الحدّ الذي يشقّ رقعتهم ويقتحمها .

الحرية هي أن تكسب الآخرين ، لا أن تنفّرهم! هي أن تكون على قدرٍ كبير من الإيمان والثقة ، أنه من حقّك أن تقول ما تريد أو تفعل ما تشاء في الوقت الذي ترغب ، لكنه ليس من حقك أن تتعدّى بها على الآخرين .

مونولوج اللغة

اللغة ، ليست لغة ، لو لم تكن قادرة على الوصف ، على ربط الكلمات ، كلمة بكلمة ، على التداخل فيما بينها ، لتعطينا هذا النموذج ، بهذه الصورة الأخيرة ، سواء على صعيد الكتابة أم على صعيد الكلام .

اللغة هي الكلمات ، الكلمات هي اللغة ، هي الواقفة في حلقة الما بين ، الكلمات هي التي تتحوّل إلى كتابة ، أو تتحوّل إلى كلام ، ويعتمد هذا على دورنا كفاعلين ، الفاعل هو الذي يقوم بهذا التحويل ، هو الذي يلعب هذا الدور بالغ الأهمية .

اللغة موجودة ، الكلمات أيضًا موجودة ، من الفاعل؟ أين الفاعل؟ الفاعل في بعض الأحيان هو أنا ، وفي بعض الأحيان الأخرى ، هو أنت ، ليس هناك من أحدٍ غيرنا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة؟ أترى حين لا نكون موجودين ، هل تستطيع أن توجد اللغة ، والكلمات ، والكلام؟!

اللغة هي الكلمات ، الكلمات هي الكتابة ، الكتابة هي تفكيك اللغة ، تفكيك اللغة هو التعبير ، التعبير هو ما نقوله أو ما نكتبه .

أما الإحساس الذي يختزلنا ، حين نحوّله إلى كلمات ، فإنها لا تعدو عن كونها حيلة مقدورة نستخدمها ، بكامل مرارتنا ، لنعبّر

عن شيء ما ، وثمّة ما يبقى مختزلاً بالداخل ، لا تستطيع اللغة ، بكل أشكالها ، أن تأتي به ، وهي بحد ذاتها ، تجدها غير قادرة على شرحه ، لأننا في ذات اللحظة ، لسنا قادرين على التصريح به ، وبمفهوم آخر يحمل صحّة العبارة ، لا نعرف الطريقة الجيدة والمناسبة لاستخراجه ، لأن الكلمات ، مهما تراصفت ، يستحيل أن تصف ما نشعر به ، ثمّة شيء في القلب ، لا يحويه إلا القلب ، بل أحياناً حينما يكون عمق الألم أكبر من أن تشرحه الكلمات ، فإن الكلمات حينها نوعٌ من زيادة الألم .

«الصبر ، شكل آخر من أشكال الألم» .

صوت - LXXI

61-217

هل تحزن الأماكن عندما نغادرها؟

أجلس الآن وحيدًا ، كما كنت قبل قليل ، دخلت إلى هذا المكان وأنا أشعر بشيء ما ، يتدفق من الداخل ، لا أستطيع أن أسميه حزنًا ، لكنه يُشبه فيما يبدو شخصًا حزينًا ، استلقيت على سريري ، مثل جندي مرهق ، أتأمل حياتي الداخلية ، لحظات الحزن ولحظات الفرح ، الساعة تشير إلى الواحدة تمامًا ، وأنا وحيدها أيضًا ، ليس من باب المصادفة أن تكون وحيدًا في وقتٍ كهذا ، يشير إلى وحدة كهذه ، هناك دلالة ما ، لا أعرفها أو لا تهمني معرفتها .

وحيدان ، وحيد ينظر إلى ساعة وحيدة ، ذات عقرب وحيد ، يشير إلى الواحدة ، أستلقي بجوارها ، لا أشكل أي شيء غير أني أستمع إلى تكتكة الوقت كيف يمر بهذا البطء .

منذ فترة ليست بالقصيرة ، ما يقارب الأربع سنوات تقريبًا ، أعود في مثل هذا الوقت تحديدًا ، لكنها المرة الأولى والوحيدة ، التي أفكر حيالها بكتابة شيء دائم ، مثل أن تعود متأخرًا في وقت كهذا إلى مكان وحيد ، لم أصطحب معي شيئًا ، إنه مكان حميم ودافئ ، يشكّل بمثابة أحد أصدقائي منذ أن جئت إليه ، بدأت بيننا علاقة حميمة وطويلة ، ستنتهي مثلما تنتهي العلاقات الجميلة ، بعد ثلاثة أيام من الآن ، أشعر بالسأم حين عرفت مثل هذه

الحقيقة ، بأني سأفارقه ، هذا المكان ، «الكهف» .

بي رغبة عارمة في خلق مشكلة معه ، إنه أمر مثير بداخلي للاستغراب ، في بعثرته ليتحول إلى شي آخر أكرهه ، أن أخلق سببًا مقنعًا لتركه ، لا يبدو نذيرًا للخير أن تترك أحدًا بهذه البساطة بعد علاقة تدوم هذه السنين ، لا شكّ أنه إثم ، بل ليس من اللائق أن يكون الهجر بهذه السرعة . أحاول أن أستمع إليه ، أسأله بهدوء بالغ بعد أن عمّ الصمت أرجاء المكان : هيه أنت ، أيّها الحميم ، سنفترق بعد ثلاثة أيام ، هل يحزنك هذا؟ أجبني أرجوك ، هل تشعر بحزني؟ أجب أرجوك . يبدو لي كذلك ، فقد احترقت الإضاءة الوحيدة في أبعد ركن منه ، إنها دلالة تشير إلى الظلام ، والظلام يشير إلى الحزن ، والحزن هو الدليل الذي أبرهن به ، أفتعل قوّة لا بأس بها من الداخل ، تمكّنني من مواجهة هذا الحدث ، أقنع نفسي بالكثير من الاحتمالات الطارئة والضرورية التي أتصبّر بها ، أبدو مطمئنًا ، أو أُطمئن نفسي بهذا الشكل الغريب والمضحك ، لابد أن أخبر ذاتي أنه حزين من أجلي ، تحت أي ظرف قد يطرأ ، ليس من اللائق بعد هذه العِشرة ، أن لا نشعر بالحزن معًا .

لطالما احتواني مثلما تحتوي الأم أطفالها ، تلتف عليهم وتجلب لهم الأمان والدفء ، إنه صار بالنّسبة لي شيئًا آخر ، أكثر من مكان أستلقي فيه ، فأحيانًا يبدو وكأنه غريبٌ التقيتُ به مصادفة ، وأحيانًا يكون مكانًا للعبادة ، ودائمًا بل أبداً في ظل جميع الأوقات : يجالسني . تصادقنا طويلاً ، تزاملنا كثيرًا ، شكونا

لبعضنا ، بكينا معًا ، دون أن يشكو أحدنا من الآخر ، حفظني وحفظته .

صديقي العزيز ، أشعر بحزن بالغ ، وهذه الكلمات ما هي إلا نوع من التعبير عن حزني المسكوب عليك ، وامتناني لعرفانك ، ولا أشك في لحظة واحدة أنك لن تتفهّم مثل هذه الكلمات الحزينة ، فإني أعرف إحساسك الصادق .

لقد احتويتني في المساء والظهيرة ، في المطلع والمغيب ، رعيتني كما يرعى الأب ابنه ، انتظرتني وسامرتني كما يفعل الأصدقاء ، لم تكن إرادتي وليست إرادتك ما يحدث بيننا الآن .

***

صديقي الحبيب ، ها قد كبرتُ قليلاً ، كبيرًا على كل شيء هذه اللحظة ، أشعر بمرارة الوقت تخنقني ، في كرهي له ، في عدم مبالاتي حيال ما سوف يحدث بعد الآن ، فقد حانت اللحظة الأخيرة التي سأودعك فيها ، حاملاً معي كل ذكرياتنا القديمة ، كل أوقاتنا الطويلة ، كل لياليا البائسة ، سوف أودعك بقلب بائس ، تاركًا لك سعادتي هنا ، ذاهبًا بحزني وحزنك ، فقد انتهى كلّ شيء غريبًا كما بدأ ، لم أكن أتوقع أن الخسارات ترتبط بالبدايات ، كنتُ كلما أعجبتني بداية ما ، خِلتُ أنها ممتدّة إلى الأبد .

صديقي الآفِل ، أطلبك السّماح ، أنا آسف . أودّعك أيّها الدافئ ، بحُرقة ظاهرة ، أغادرك أيها الوحيد ، كما يغادر الابن والدته ، ليست رغبته ولكنها رغبة الزمن ، أودّع الذّكرى الجميلة ،

وداعًا يليق بها ، أذهب من بين يديك الآن ، لستُ آملاً أن أعود مرّة ثانية . كذا ، على الطّريق نسير ثم نفترق ، نحمل الحزن في ليالٍ ضيّقة ، وما كنتُ لأجرؤ على أن أفعل ما سأندم عليه . أوّاه . . أيها الحميم ، سوف أذهب . . وحيدًا كما جئتُ إليك ، وستظل هنا ، وفيًا كما عرفتك ، ووحيدًا كما كنتَ عليه .

وداعًا إلى آخر العُمر .

. . . . . صديقك في زمانٍ مضى .

«الوسيلة ، ثم الطريق ، ثم الهدف ، ثم الغاية ، وهذا كل ما في الأمر» .

صوت – XLII

تجوال

من الوريد إلى الوريد ، من الشفاء إلى الألم ، من السعادة إلى الحزن ، من الوجود إلى العدم ، من الأجوبة إلى الأسئلة ، من الانتظار حيث لا أحد ، من القلق إلى القلق ، كانت تجري حياته ، ثمّ تعود ، دون جدوى ، إلى القلق ، إلى الانتظار ، إلى الأجوبة ، إلى الحزن ، إلى العدم ، إلى الألم ، ومن الوريد إلى الوريد ، هكذا تمشي حياته .

وما بين أن يكون ولا يكون ، ما بين نسيانه وحضوره ، ما بين ذهابه وإيابه ، فإنه يكره الانتماء ، يفضّل أن يبقى وحيدًا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، يحاصره التمنّي ، لا تخلّي ممّا يشغله ، في كل الجهات يلتقي بما يهرب عنه ، في البعيد يلقاه ، في الغياب يلقاه ، في الشمال يلقاه ، في الجنوب يلقاه ، محاطٌ بكلّ ما يسبب له الأسى ، من أقصاه إلى أدناه .

حين تسأله عن الحال ، يخبرك بلهجةٍ حزينة أنه يعيش في سعادة ، وحين يكون سعيدًا ، تدرك من خلال ابتسامته ، أنه يعيش في حزن ، لا يلحظ خسارته إلا متأخرًا ، يخالف نفسه بنفسه ، يخالف قراراته بأفعاله ، كل الأشياء التي يحبّها تأتي ناقصة ومتأخرة ، لا شيء يأتي في أوانه . في حين يصنع حياته ؛ الناس المخطئون يرون أنه على خطأ ، والناس الصائبون يقرّون بخطئه ،

ووحده من يتحمل نتيجة أفكاره .

يهرب من الناس ليلتقي بنفسه ، يلتقي بنفسه ليهرب من الناس ، حين يكون معهم فإنه يسرح بغيرهم ، وحين يكون مع نفسه ، فإنه يسرح بالناس ، حسن المزاج ؛ لكنه قلق ، سعيد ؛ وتعتريه علامات الحزن ، مستعد ؛ ويجهل خط البداية ، ثابت ؛ ويتأثر بسهولة ، صلب ؛ ومعرّض للكسر ، حين يصنع السعادة تتحوّل إلى حزن ملحوظ ، إنه يجهل كيف يكون بعد ، لا ثبات له ، لا هدوء له ، مكتظ بأتفه التفاصيل .

يحتاج إلى شيء ، لكنه لا يعرف ما هو؟ يحتاج إلى أحد ، لكنه لا يدرك من هو؟ . ثم يفكر قليلاً ، فلا يجد معه إلا ذاته ، فيعود إليها ، ولا يعرف ماذا يفعل . يأخذه الغياب هوينًا هوينًا ، حتى يتلاشى من الذاكرة دفعة واحدة ، يجوب العالم ولا يعجبه شيء ، دائماً ما تكون لديه مشكلة ، لا يعرف لها سبب ، ليس متفائلاً ولا متشائمًا ، لا شيء يحرّضه للبقاء في ذات المكان ، حتى نفسه التي يثق بها أحيانًا ، تتخلى عنه في أماكن بعيدة .

إنه بخير رغم قلقه ، حين لا يقلقه شيء ، فالأمر لا يبدو على ما يرام ، وحين يقلق ، يدرك أنه بخير .

معنى أن تختلي بذاتك

انطلق أيها الشارد ،
ودّع ضياعك في صباحٍ سارّ ،
له تغريد العصافير ،
وانعزل . .
العزلة تردّك إليك ، حين لا تجد ذاتك!

***

العزلة معبد الروح ، اكتفاء النفس عن الحياة والناس ، مكانها الأبدي منذ الأزل ، نجواها البعيدة منذ الصغر ، يلتجئ الإنسان إليها ليرمّم التهالك المحيط به .

العزلة شفاء القلب ، طَرد الخطايا عن الجوارح ، نقاء الروح من دنس ما نقترفه فوق الأرض ، صمت الإنسان الدائم ، حديثه الذي لا يقوله إلا في وصايا النفس ، عيناه التي يرى بهما هذه الروح المنبعثة في الأعماق .

العزلة عين القلب ، راحته المرجوّة بعد عمر طويل وتعب دائم وكدٍ شديد ، شعور الرضا عن الذات بعد اقتراف ذنب أخير ، جواب الأسئلة التي لم ينطق بها أحد ، طريق نظيف لم تلطّخه الأقدام بعد ، كلمة تزيل العوائق عن الطريق ، وتصنع فارقًا كبيرًا للبهجة .

العزلة تصنعك ، والوحدة تربّيك ، إنني لم أكن هكذا ، لكن وحدتي صنعتني ، وإذا أردت أن تحس بقيمتك ، فعليك أن تبقى وحيدًا ، الوحدة نزاهة الروح . العزلة صديقك الحميم ، ومعلمك القريب ، والغريب الذي تأمنه ، والمسعف الذي يستعد لإنقاذك من الخطر .

العزلة معبدك ، دورك أن تذهب إلى هناك وتعتكف بداخلها ، تفسخ هذه الروح المتسخة منك ، وتطهّرها ، تقف صفًا إلى صف أمام ذاتك ، تنقّيك من كل ضعف وخطيئة ، تنزع ما علق من الذكريات وتغسلها ، تمنح ذاتك الوقت الكافي لتبقى حيًا في ظل هذا الجسد الذي أرهقته منذ السنين .

العزلة أمانك ، أيها الوحيد ، الخائف ، الضائع ، المنزوي ، المتورط ، البعيد ، المحدق ، المتأمل ، الآمل ، الناسي ، الذاهب ، المسافر ، المستجد ، المكتظ ، القاسي ، الصلب ، الداكن ، الجاحد ، العاق ، العزلة هي ما تبحث عنه الآن ، هي صوتك وصورتك ، ظلّك وهيئتك ، ليلك ونهارك ، بردك ودفؤك ، ربيعك وخريفك .

«لكل شيء صوت ، حتى الصّمت» .

صوت - LXI

متماثل مع ما تفرضه البيئة

المدن تربّي سكانها ، وبشكل غير ملحوظ ، تعوّدهم على ما تريدهم أن يكونوا ، تغرس فيهم القوانين التي يسيرون عليها بطريقتها المبطّنة ، تخرجهم بصورة ترغبها هي ، كي تحافظ على صورتها أمام القادمين ، إنها بشكل أو بآخر ، تلغي جميع المعتقدات التي يؤمنون بها قبل مجيئهم ، بمجرّد أن يصلوا إليها ، فلكل مكانٍ تعاليمه ، تقول لهم في صمتٍ خالص ، ما يجعلهم في انتباه مشدود يفعلونه دون إدراكهم ، تسيّرهم وفق رغباتها القديمة ، تنشئهم مثلما تريد لهم أن يكبروا في ظلالها ، بل قد تسيطر عليهم حتى حينما ينتقلون إلى مكانٍ آخر ، فإنهم ينتقلون بما غرسته بدواخلهم .

أن ينشأ المرء في مدينة ، فإنه سيكون تابعًا لما تفرضه عليه ، حتى وإن لم يشعر بهذا ، وحين يكبر فإنه سيكون في إطار ما فرضته عليه مدينته في سالفِ عهده ، أن ينتقل المرء إلى مدينة أخرى ، أو مكانٍ آخر ، فإنه سيذهب بتعاليمه إلى تعاليم ذلك المكان الآخر الذي انتقل إليه ، ثم في الأخير سيضطر إلى أن يمازج بينهما ، أو يسلّم نفسه للأحكام التي تفرض نفسها ، لمقاييس المكان التي لا تسمح له بأن يمارس حقه المشروع الذي نشأ عليه .

البيئة التي ينشأ عليها الطّفل ، هي التي ستقيّده لا حقًا ،

سيشعر من وقتٍ لآخر ، أن هذا هو مبدؤه الذي يجب أن يرتكز عليه ، من أين جاء له هذا المبدأ؟ إنه من المدينة ، من البيئة التي ترعرع فيها ، ومهما اختلف عن الآخرين ، فإنه سيظل باستمرار ، يقول ذاته منذ أن وجدها واستطاع تمييزها ، متمسّكًا بشريعته التي فرضتها عليه المدينة .

يولد المرء جاهلاً ، في مكانٍ ما ، وهذا المكان مليء بتعاليم الطبيعة في محيطه ، فالذين يعيشون في رؤوس الجبال ، ليسوا كمن يعيشون بجوار البحر ، أما المرء فإنه يولد إنساناً وجاهلاً ، هنا أو هناك ، ثم بواسطة المكان الذي جاء فيه ، وجد نفسه ينشأ على قوانين هي موجودة في الأساس ، قبل مجيئه وبعده ، فأخذ يتماشى معها ، خطوة بخطوة ، حتّى تشبّع من هذه التعليمات في إطار محدود عاش فيه ، وما إن ينتقل إلى محيط آخر ، إلا ويجد ذلك المحيط مليئًا بتعاليم في إطار معيّن ، تسنّه عليه الطبيعة ، بغير إرادته ، وما إن يعود إلى حيث كان ، إلا ويرجع إلى حيث كان يعرف نفسه أوّل مرّة .

«يحاسبنا اللّه على نياتنا ، لأن الناس من السهل خداعهم».

صوت - XCVI

يمكنني أن أقول بأن الأبيض ليس لونًا

عن البياض ؛ الأبيض ، هذا اللون الناشز عن الألوان كلها ، النقي في ذاته ، لو كنت أستطيع أن أرمز له بشيء ، لرمزت له بشيء غير اللون ، ولو كنت أستطيع أن أصنف الأشياء من جديد ، لصنفت الأبيض إلى شيء آخر غير الألوان ، إنه لا يصلح أن يكون لونًا ، شجرة مثلاً ، أو طفلاً ، شيء طاهر في فردانيته ، ومتألق في داخله ، أبيض بصفاء ، أحس بأنه نوع من الأصدقاء ، أكثر من كونه لونًا ، له يدان دافئتان وملمسٌ ناعم ، ما إن تنظر إلى لوحة يكسوها البياض إلا وتعتريك رغبة الكتابة أو الرسم .

إنك تبحث عن هذا اللون ، كلما شعرت برغبة لقول شيء ، وفي الحقيقة أنت لا تبحث عن الأبيض بقدر ما تبحث عن شيء فارغ ، تريد أن تملأه بما عندك ، ومن هنا يمكنني أن أنطلق وأقول أن الأبيض ليس لونًا من الألوان ، إنه شيء آخر ، قد يكون هو الفراغ الذي نبحث عنه ، هو الصمت الذي نحتاجه عندما نريد أن نكتب أو نرسم ، إنك تبحث عن هذه الصفحة الفارغة ، الصفحة البيضاء ، التي تسمح لك أن تفعل بها ما تشاء ، دون أن تؤذيك أو تفسدك ، لكنك تفسدها أنت بكل إرادتك .

أحب هذا اللون من الألوان ، المستقل بذاته ، أحبه لأنه ليس لونًا ، لكنني لا أعرف له اسمًا غيره ، أحب صداقته ، أحب كثرته

في مذكراتي ، وأوراقي ، أحب أن تكون أشيائي بيضاء في لونها ومضمونها ، أحب أن أرى الناس يتزيّنون بهذا اللون ، ويستخدمونه في حياتهم ، اللون الأبيض ، المنفرد ، المتألق ، القادر على منحنا مساحة نقول بها ما نشاء ، لتسطَع أكثر .

لطالما فرّغت حزني في هذه الصفحات البيضاء ، ولطّختها ، وقتلت جمودها ، وفسدت نقاءها ، وغيّرت سعادتها ، وكسرتُ شموخها ، ووزّعت تماسكها ، وعرضتها بكل حفاوة بعد أن اضطهدتها وأصبحت ملكًا لي .

هذه الورقة البيضاء ، باخسة الثمن ، خفيفة الملمس ، رقيقة المسك ، صحيحة المنظر ، المكسوّة بالحميمية . هذه الورقة البيضاء . هذا الأبيض ، اللون الوحيد ، هو لون السلام .

المسافة الواقعة بين الرمح والطعنة

إلى شخص يستعد للشرب : لا تجرح الماء .

إلى شخص يستعد للخروج : لا تفسد سعادة الآخرين .

إلى شخص يستعد للحب : سوف يسألك الله عن عذابهم؟

إلى شخص يستعد للرحيل : لا تترك رائحتك هنا .

إلى شخص يستعد للنوم : لا تتوقع حلمًا جميلاً!

إلى شخص يستعد للصداقة : الأصدقاء المزيفون أنهكونا .

إلى شخص يستعد للصلاة : لا تنسَ أن الله أمامك!

إلى شخص تعنيه مصلحته : لا تجحد خدمة الآخرين

إلى شخص يجلس وحيدًا : حافظ على هذه المودة!

إلى شخص يفكر : رأسك لا يستحق هذا الصداع .

إلى شخص يحاول أن ينسى : لا تجهد نفسك كثيرًا!

إلى شخص يبحث عن الجمال : حاول أن تقدّمه!

إلى شخص يشعر أن الناس ضده : تصالح مع نفسك .

إلى شخص ينتظر شيئًا : الطريق مليء بالعوائق! .

إلى شخص يشعر بألم في قلبه : إنه موطن الجرح!

إلى شخص يراقب الآخرين : لا تتعرضَ لقولون عصبي!

إلى شخص يبحث عن الضوء : افتح النافذة!

إلى شخص يتحدث عن الأمل : هل تشعر بألمي! ؟

إلى شخص يبتسم : عيناك تفضحك!

ما يمثّل دورًا مهمًا

وتكتب ؛ لأن الكلمة كالغصة في حلقك ،
وتبكي ؛ لأن الألم أكبر من قدرتك على تحمّله ،
وتنام ؛ لأنه ليس بوسعك أن تسهر وحيدًا . .
وهكذا أنت ؛ لأن قلبك ليس معك!

وتسأل ؛ لأن الجواب يعنيك ،
وتهتم ؛ لأن الانتظار يؤرقك ،
وتتصل ؛ لأن الأصوات تطمئنك ،
وتقلق ؛ لأن الهم يأكلك . .
ثمّ تحاول أن تشعر بغير ما تشعر به!

وتغيب ؛ لأنه لا أحد يسأل عنك ،
وتروح ؛ لأن أصدقاءك لا ينتظرونك ،
وتضحك ؛ لأن الحزن يؤلم من يرونك . .
ثم تعود مثلما جئت!

وتخاف ؛ لأن الجراح تحاصرك ،
وتضطرب ، لأنها معطوبة ذاكرتك ،

وتنزوي ؛ لأنك لا تعرف ما الذي بوسعك . .
ثم يبدو ليلك ظامئًا وحزينًا!

وتُعطي ؛ لأنه لا أحد يأخذ منك ،
وتأخذ ؛ لأنه لا أحد يعطيك ،
وتومئ برأسك ؛ لأن أي شيءٍ يرضيك . .
ثمّ تظهر عليك ملامح الهزيمة!

«لا شيء كالضّحك ، ينصرك على الهزيمة» .

صوت - LXXIV

ما تفقده، هو ما يبقى معك. ما يبقى معك، مهدد لتفقده

هناك..

هناك من لا يأتي . .

هناك من يأتي ويبقى . .

هناك من يأتي ثمّ يذهب وينتهي . .

هناك من يأتي ثم يذهب ويبقى ولا ينتهي . .

وهناك من يأتي ثم يذهب ثمّ ينتهي ثمّ مع نهايته يبدأ .

ومعك . لا أحد ، لا أحد هنا ، لا أحد هنا معك ، لكنك بشكلٍ يكاد لا يصدّق ، تشعر بهم معك ، وتكذّب ذاتك! . وأنت تبدو هنا ، فعلاً هنا ، وحدك هنا ، ولا أحد معك ، تنتظر ثم تغيب ، تغيب ثمّ تنتظر ، وبرغم غيابك ، وبرغم انتظارك ، أنت حاضر هنا ، وهناك ، وفي كل مكان . لكنك بشكلٍ يكاد يصدّق ، لا تشعر بهم معك ، وتؤمن بذاتك .

تحاول ، دونما جدوى . تفكّر دونما فائدة . ثمّ في الأخير تقف ، بعد أن اهترأت بالكامل ؛ وجهًا إلى وجه ، ندّك أنت ، وضدّك أنت ، بلا ورقة رابحة . تشعر أنك بحاجة إلى الخلاص ، تدرك جيدًا أنّ الخلاص ليس هو كلّ شيء ، لكنه آخر ما يمكنك أن تقدّمه .

تذهب ، ليحلّ غيرك . تنام ، ليسهر غيرك . تحزن ؛ ليبكي غيرك . تجرح ؛ لينزف غيرك . تغيب ؛ لينتظر غيرك . تُحب ؛ ليأنس غيرك . كأنّ حياتك ليست لك ، كأنها لغيرك . تذهب لتنام .. تطفئ النّور . . تضع رأسك على وسادتك ، وتغمض عينيك . . ولسببٍ ما ، لا تعرفه ولا أعرفه ، ولا يعرفه أي أحد تظلّ مستيقظًا .

خيرك للنّاس ، لن يقيكَ شرورهم كما تزعم ، شرّك ، لن ينجّيك كما تظن ، بعد أن يعرفوك ، لن تعودَ مثيرًا ليبقوا معك ، حين تشعر أن في قلبك ثقبًا ، ففي قلوب الآخرين كذلك ، حين تظن أنه يتّسع ، فثقبهم كذلك ، وحين يملي عليك شعورك أنهم سببه ، فشعورهم يملي عليهم كذلك ، حياتك مليئة بالأحلام الجميلة ، الجميلة جدًا ، تلك التي يستحيل أن يحقّقها لك الواقع ، لكنك مستمر بالحلم ، لا يعيقك عدم تحقيقه .

من الطبيعي أنّ ما يجرحك لم يكن ليؤلمهم ، وما آلمهم لم يكن ليجرحك ، وما تقصده لم يكن ليعرفوا ما هو ، وما تعرف ما هو ، لم يكن ليخمّنوه ، وما تخمّنه ليس هو ما يشعرون به ، وما يشعرون به لم يكن لتدرك أنك سببه ، وما تدرك أنك سببه لم يكن لتعرف أنه مؤلم ، وما هو مؤلم ليس هو ما تعتقد أنه مؤذٍ ، وما هو مؤذٍ تقول بأنك لا تقترب منه ، وما تقترب منه هو ما يبتعدون ، وما يبتعدون عنه ، هو ما يجرحهم وما يؤلمهم وما يؤذيهم وما هو من الطبيعي أن يتخلّوا عنه .

لم يبقَ معك إلا يد واحدة ، لا تعرف من أين جاءت في الوقت الضائع ، هذه اليد ، الممتدة نحوك ، المتوسّدة أصابعك ، المتلحّفة قلبك ، الدافئة كالحرير ، التي تشعرك بالأمان من خلال اشتباك أصابعكما ، حينما تفلتك تظل بقايا الاطمئنان عالقة فيك ، والهدوء يسري في محيّاك ، الحنونة كما لو أنها كلمة حانية ، العامرة بوفاءٍ لا حدود له ، المبسوطة كالنفقة .

هذه اليد ، الموغلة في الحنان ، التي تعطيك قوّتها ، برغم العجز الذي يحتويها حينما تبتعد عنك ، برغم الضعف يسكنها كي تنهار وراءك بضعفين ، على أن تستمد قوتك من قوتها ، التي لا تملك شيئًا إلا أنها مازالت تتمسك بك ، الطويلة مثل شوقٍ لا ينتهي ، التي تعود عليك بالنفع والفائدة ، التي تتحوّل إلى حزن غامق لمجرد أن يموت الإحساس بينكما ، التاركة بعض الجمال لتسلى عن عيوب تعتريك ، المؤجّلة مواعيدها لحين قضاء مواعيدك ، الذاهبة معك ، العائدة قبلك ، الغادية منك ، والآفلة حيث تكون ، التي تجرحك بلمسة ، وتداويك بلمسة أخرى .

هذه اليد ، التي لن تحصل عليها في جسدٍ آخر ، قبّلها واقبلها ، تمسّك بها ، امتدّ نحوها ، توسّد أصابعها ، تلحّف قلبها ، أشعرها بالأمان والامتنان من خلال اشتباك أصابعكما ، امنحها قوّتك برغم العجز الذي يعتريك ، هذه اليد ، ليس كمثلها يد ، لا تفلتها .

بينيّات

بين النور والظلام ؛ تقف
لأن السطوع يزعجك ، والظلام يخيفك
بين الساكن والمتحرّك ؛ تأتي
لأن السكون يثقل عليك ، والمتحرّك يسبقك
بين الهدوء والضجيج ؛ تكون
لأن الهدوء يثيرك ، والضجيج يفزعك
بين الحزن والسعادة ؛ تعترض
لأن الحزن يؤذيك ، والسعادة أبعد منك
بين الصمت والصوت ؛ تركن
لأن الصمت أخف منك ، والصوت يلجمك
بين الأسف والمسرّة ؛ تسكن
لأن الأسى يلازمك ، والمسرّة أكبر منك
بين الحب والكُره ؛ تَخلُد
لأن الحب يتعبك ، والكُره ينتقم منك
بين الشيء ونقيضه ؛
دائماً تكون
لأنك
الضّحية
بين ذاتك وبينك .

«إن إمكانية التقاطنا صورة جميلة من مكان مبعثر وحزين، ما هو إلا برهان كافٍ عن مدى إمكانية استخراجنا من يوم حزين لحظة سعيدة».

صوت - XLV

عبء العدم

الفراغ، الانشغال باللاشيء، العدم، عدم معرفة ما تودّ الانشغال به، الجلوس الفارغ من أي فكرة تطرأ، إنه السبب المهم للقلق، والتعاسة، في كثير من الأحيان، أحب القيام بأعمال تافهة، إنه سلوك مرضي على أقل الأحوال، نعم إنها تافهة وعاديّة، بل ومكرورة أحيانًا، يستطيع أن يقوم بها شخص عادي لمجرد أنه شعر بالملل، حتى تخلّصني من فكرة ما، قد تجلب لي الصداع.

هكذا تتخلّص من الفراغ، الفراغ هو الملل، الملل هو الفراغ، بالانشغال، بجدوى أو بدونها، حين تكون مشغولاً بشيء ما، فإنك تمنح لنفسك فرصة الهروب، الانشغال هو الهروب، هل هذا صحيح؟! تصبح قيمة الوقت لديك قيّمة وثمينة، لأنك تستطيع أن تتخلّص من الفراغ، فحين تعمل بجد وكد، أو تعمل فحسب، فإنك تهرب من الفراغ، ومن الملل، إلى ملل آخر؛ لأنه كما تعرف، الوظيفة، أو العمل، مكان مناسب، لكسب المال والملل، لكنّها أنسب من الفراغ.

تشعر أنك مشغول رغم الفراغ، هناك شيء ما دائماً تقوم بفعله، دون أن تشعر أنك تفعله، أنت في هذا الوقت تحديدًا، وبرغم أنك لا تفعل شيئًا، تفعل شيئًا ما.

إن الدافع للبحث عن شيء تنشغل به ، هما الفراغ والملل ، والفكرة الناتجة من خلالهما ، صحيح؟ فأنت رغم شعورك بأنه ليس لديك ما تقوم به ، إلا أن الحقيقة ، وواقع الأمر ، كما أخبرتك ، تقوم بشيء ما ، تركب السيارة ، وتقول بصوت ضجر : «أنا متعَب ، وأشعر بالملل ، وليس في هذه البلدة ما يسُر» ، تُراك كم فعلاً قمت به؟! صحيح ، أنك لم تبذل جهدًا يذكر أو يتعبك ، لأن لديك فكرة مسبقة وقديمة ، بأن من شروط العمل هو التعب ، فإذا ما قورَن العمل بالتعب ، فإنه لا يُعد عملاً ، وهذه فكرة لا أحب أن أحملها على محمل الجد ، التعب عبارة عن ناتج ، ولا يصح لنا القول ، في جميع الأحوال ، بأننا إذا لم نشعر به ، فإن ما كنّا نقوم بفعله ، ليس عملاً .

إنك بحاجة للاعتراف والقول ، بأن هذا الشعور الفارغ الذي يطوّق الكثير من لحظاتك ، هو ما يجعلك شخصًا عابثًا ، مليئًا بأعمال لا تعرف كيف تنجزها .

لا أستطيع تسمية هذا الوحيد في أقصى الركن ، إنساناً فارغًا ، حتى لو بدا للجميع كذلك ، لأن وجوده في هذا المكان تحديدًا ، يشير إلى معنى أنه شخص حزين ، أو يقوم بحزنه ، تأمّله معي ، إنه يعطي دليلاً كافيًا ، على أنه ينتظر شيئًا ما ، ومشغول في شيء ما .

***

الوقت ليس لك ، وإن حدث كهذا ، أحياناً يحصرك في جزء منه ، مهما بدا بأنه لك ، كأن لا يبدو هناك ما تقوم به ، فتشعر أنه

من صالحك ، وفي الحقيقة أنه حينما يشعر المرء بأن الوقت ما زال معه ، فهذا يشير بشكل ما إلى أنه ليس معه ، أو أنه لن يأخذ حريته في وقتٍ يشعر من خلاله أنه من حقّه ، الوقت بأكمله لن يكون لأحد .

تمر عليك أوقات كثيرة تشعر معها بالملل لأنه ليس ثمة ما تفعله حينها ، فتارة تشعر لوهلة أنك على استعداد تام لفعل أي شيء تكسر من خلاله حاجز الفراغ ، ثمّ لا تفعل شيئًا ، الوقت ليس لك . يمر اليوم ، تلو اليوم ، تلو اليوم ، تلو الآخر ، وأنت ما زلت هنا ، عند هذه اللحظة تحديدًا ، في هذا الوقت ، وهذا اليوم ، اليوم الذي صار أمسًا ، لم يُحدِث شيئًا ، ولم تشعر بأن شيئًا ما قد حدث ، تشعر أنك هنا ، في هذا الفراغ ليس إلا ، والوقت كله قد تقدم لفراغٍ آخر ، ذهب إلى هناك دون استئذانٍ منك ، ودون أن يأخذك معه ، لأنه لا يأبه بك .

يمر الناس ، يتحركون ، تتحرك أنت أيضًا ، تعبر مثلما يعبر الناس ، تسقط أوراق الأشجار ، يطرأ حدث جديد في العالم ، تتغير أشياء كثيرة ، يموت البعض ، يولد آخرون ، يحترق شيء ما ، يتعطّل شخص ما ، طائرة في السماء تتحطم ، رجلان يقتتلان ، عاشق يقبّل حبيبته ، جائع يبحث عمّا يأكله ، أم تغسل أطفالها ، طائر يأكل الحَب ، آخر يبحث عن عشّه ، حزين يبكي هناك ، سيارة تصطدم بأخرى ، أخرى ترتطم بجدار ، فتاة تكتب رسالة ، صديق يهاتف صديقه ، يبحث عن شيء ينشغل به ، مجهول يعبر نقطة

حجز ، بائع يعد حصيلة اليوم ، مريض يفيق من غيبوبته ، عابد يطيل في سجوده ، طفل يسأل عن الله ، فلاح يحرث حقله . أحداث تمرّ الآن ، تعبر من مكانٍ ما ، لحظة بلحظة ، تفوت الآن لكنها من لحظات الماضي ، قدّر لها أن تعبر منذ آلاف السنين ، دون أن تلتفت إلينا ، الوقت لا يتعطّل من أجلنا ، سواء تعطلت الساعة المعلقة على الحائط ، أو تعطلنا نحن ، فلدى العالم ما يُشغله ، ولدى النّاس ما يُشغلهم ، ونحنُ نعتقد بأنهم مشغولون بما يشغلنا .

***

اللحظة التي نعتبرها جميلة ، وتنقضي ، ثم نتألم عليها ، فلنعي من الأساس ، بأنها لم تكن لحظة جميلة ، اللحظات الجميلة لا تؤذي أحدًا ، إنها ما نرغب بتكرارها ، وعودتها ، وعدم الخلاص منها ، ما يؤذينا حقًا هو كل لحظة ، لسببٍ ما ، اعتبرناها لحظة جميلة ، لكننا الآن ، لذات الإدراك المتأخر ، لا نريدها أن تعود ، لأنها لم تكن في مضمونها السابق ، لحظة ممتعة .

كنتَ تحب فلانًا من الناس ، ثم نشب بينكما خلاف ، وفرّقكما ، فأخذت تقول في نفسك ، وتشتم ، كل اللحظات التي عشتها بجواره ، حتى اللحظات الجميلة ، أو تلك التي كنت تشعر أثناء ما حدثت ، أنها لحظة فذّة وبديعة وغير متكررة ، وأنا لا أقصد أن تكون جاحدًا لجميلة ، أو ناكرًا لمعروفه ، لأن هذا موضوع آخر ، يعنيك ولا يعني ما أقصده بين سطوري هذه ، لكنك شعرت للتو بأن غالب تلك الأوقات ، لم تكن كما كانت ، اتّضحت كثيرًا هذه

اللحظة ، ثم أخذت تسأل ؛ ما بالها أصبحت مؤذية الآن؟! هل لأنها لحظة جميلة بالفعل؟ هل اللحظات الجميلة تؤذينا؟ أو لأنك للتو أفقت ، بأنها لم تكن سوى خديعة للحظة يبدو غلافها جميلاً .

على المقابل ، انظر يمنة ويسرة ، نقّب في الماضي ، سوف تحصل على العديد من الأوقات الجميلة ، التي تتمنى الآن ، بإخلاصٍ عامر ، وحزنٍ يتدفّق ، وحنين ممتد ، أن تعود وتتكرر ، وتحدث لمئات المرّات ، لأنها لحظات جميلة بالفعل . وبعيدًا عن ذلك كله ؛ علينا أن نتعامل مع اللحظات الراهنة والقادمة ، وكأنها ولادة لشعور جديد ، هكذا تبدو كل لحظة لم تُخلق بعد ، إنها مؤشر لشيء يجب أن يكون فيما معناه ، رائعًا ومسليًا ، أو على الأقل ، لنحاول أن نصل إلى هذا الشعور ببالغ الرّجاء في تحقيقه .

عبور

«شيء مرّ . . لم يأتِ بعد»
حين تمكّنت من النظر إليه . .
اختفى
وحين قررت الذهاب معه . .
غاب
أطرده دونما جدوى
ألحقه بتعبٍ بالغ !
كالسراب . . حين أحدق فيه
أراه ينتظرني .
وحين أشارف على الوصول إليه
أراه يسبقني .
شيء مَرّ . . له صورة لا أراها
إلا في الذاكرة!
يدخل مع باب موارب
فيه ثقب
يدخل من هذا الثقب ؛
ضوء
يأتي مع هذا الضوء ؛

نور ساطع
لا يشبهه نور
فيصافحني!

شيء جاء
وصل إليّ
مَرّ،
وجلس بجواري
لكنّه لم يأتِ بعد!

«تفاصيل صغيرة ، بل قد تبدو تافهة أحيانًا ، تُحدث في العمر ، شرخًا كبيرًا» .

صوت - LXXIII

فكرة تنمو، ثم تتحوّل إلى صداع

السكوت ، الهـدوء ، الصـوت بالداخل ، الصـوت المزعج أثناء الهدوء ، المتذبذب من الأعـماق ، من الداخل تحديدًا ، الضـجيج الذي تشعر به ، البلبلة التي تجلب الدوار ، عدم الاتزان والثبات ، الطنين الذي يحدث اضطرابًا سببه الإنسان وذاته ، حيث تستغرب أنه في مكانٍ هادئ ، يجلس وحيدًا أو يحدّق أو يتأمل في شيء ما ، يشعر بالاضطراب من الداخل ، لأن ثمة مشكلة عويصة بينه وبين ذاته ، تحدث له هذا الخلل غير الملحوظ بالنسبة لمن يكونون بجواره ، دون أن يشعر به غيره .

التزعزع ، حين تكون في مكانٍ فارغ ، نتيجة فكرة حادة تسيطر عليك ، تضغط بكل قوّتها ، حتى تدحضك تمامًا ، فتسلّم لها ، كما يحدث مع الآخرين أيضًا ، أشعر بها ، إنها لعينة وقويّة وتملك الصلاحيات الكاملة للسيطرة ، وهذا الهدوء من حولك ، ما هو إلا مؤشر لاستيقاظها .

تفكر ، حيث كل فكرة ، عبارة عن مشروع كبير من القلق ، هكذا تبدأ ، تفكّر ، وبينما أنت تفكّر ، تعترضك فكرة أخرى لم تفكّر بها ، تفكّر بها ، تصاب بالدوار منها ، لا تدري كيف يأتي الدوار؟ هل هو من خلال أن الفكرة معقدة فعليًا؟ أم أنك لم تتعامل معها كما يجب؟ -لكل فكرة طريقة مناسبة للتفكير بها- ، تعود

إلى فكرتك السابقة ، تنشغل بها ، تفكّكها وتحاول تفسيرها ، في رأسك فكرتان الآن ، تمر بسرعة فكرة أخرى ، تصطادها ، غير هاتين الفكرتين ، لا تعجبك ، تعترضك فكرة جديدة ، تقترب منك ، تتفحّصها ، تفتّش عن فائدة مختبئة كي تحافظ عليها ، لكنك لا تجد ، تبحث عن فكرة أخرى ، جديدة كليًا ، تحاول استخراج فكرة مغايرة من هذه الفكرة الجديدة ، وكما تعرف ، بأن الأفكار تتوالد من بعضها ، تتضارب برأسك العديد منها ، تهاجمك بكثافة ، تقتحم ذاكرتك ، تسطو عليك ، تفلت منك ، ليس بمقدورك أن تسيطر عليها ، إنها تشبه حركة المجموعة الفلكية حول بعضها ، تتصارع برأسك آلاف الأفكار ، تخرج من كل فكرة ، فكرة جديدة ، لديك ملايين الأفكار الآن ، غير متّزنة وغير ثابتة ، متذبذبة ، تشعر بالصداع يقسمك نصفين ، تغمض عينيك ، متجاهلاً ، مشمئزًا ، وحانقًا ، حيث أن فكرة تافهة وصغيرة ، سيطرت عليك . تمامًا .

مثل هذه الأفكار جبّارة وقاسية ، ولا تستطيع أي قوة قادمة من الخارج أن تهزمها ، لأنها بكل بساطة ، ليست من الخارج ، إنها من الداخل ، من الأعماق ، من الصميم . لذلك أنت تشعر بهذا التذبذب وغير الاتّزان ، وحين تنتقل من مكان لآخر ، تظل تلاحقك ، إنها مرتبطة بك ، وتعيش بداخلك ، وأنت مرتبط بها ، ولا تستطيع أن تنفك عنها . يثير هذا الهدوء ، الفكرة ، حتى تصرخ بهذا الطنين المزعج ، إنه حاد ومؤذٍ .

فلتخرس هذه الأفكار السحيقة بالداخل ، فلتدحضها ولتبقَ صامتًا ، ولترفع صوت الهدوء بداخلك ، ولتستمع إليه ، حتى يحررك من الداخل ، لتتحوّل إلى طفل ؛ يجلس ساهياً ، ثمّ أخذ بتأمّل .

«حين نطلب من أحدٍ أن يبقى قويًا في أقصى درجات ضعفه ،
فإننا بشكل أو بآخر ، نطالب بتدميره» .

صوت - XCV

حيلة مقنعة

لستُ أدري لماذا ننجح في مساعدة الآخرين ، أكثر من نجاحنا في مساعدة أنفسنا؟ لماذا نملك هذه الفتوّة في سبيلهم ، وكأن وجودنا ليس إلا من ضمن صالحهم؟ وهم في المقابل أيضًا ، يواجهون هذه الصعوبة مع ذواتهم .

إن الأشخاص الذين نوقن بأن لديهم قدرة فائقة في فهم الآخرين وتفكيك مشكلاتهم ، يواجهون مصاعب عديدة في فهم أنفسهم وتفكيك مشكلاتها ، إنهم يقومون بهذا الدور بالغ العظمة ليس من أجلهم فحسب ، بل من أجل أن يشعروا بسلامة صدورهم من خلال ما يقومون بفعله للآخرين ، فنحن مثلاً ، حين نصنع السعادة ، على سبيل التجربة ، لأنفسنا بواسطة أنفسنا ، كأن نخرج وحيدين في نزهة ذات صباح جميل وباكر ، لن نشعر بها تتفاعل ، مثلما لو صنعناها في قلوب الآخرين ، أو شاركونا إياها ، إن فرحتنا في الغالب لا تقاس حين نكون سببًا في فرحة أحدهم ، بل ربما وبشكل محسوس ، يعترينا الفرح أكثر منهم ، على الرغم من جهدِ ما بذلنا في صالحهم ، إنه لمن المدهش حقًا ، هذه القدرة الهائلة والمتواجدة في كل إنسان ، ليتحمّل كلّ شيء على أن يتحمّل ذاته .

يبدو الكلام في أي موضوع لا نحسّه سهلاً عندما نتحدث أو

نكتب عنه ، عندما نرشد الآخرين لطريقة استخدام تُجنّبهم ما يؤرّقهم ، ونعطيهم وصفة مناسبة يطبّقونها ، نقوّيهم بالكلمات المغلّفة وسريعة الاستخدام ، نطرح عليهم العديد من الأفكار التي نراها مهمّة في هذا الصدد ، والإمكانيات التي يجب أن تتوافر لديهم ، وكأننا نفكّر وإيّاهم في إنشاء مشروع متوسط الحجم ، لتعود الأرباح لنا ، لكن الأمر يبدو في غاية الصعوبة والأرق عندما نعيشه ، ولا نجد لأنفسنا من يسدي لنا مثل هذه الخدمة ، وترانا عاجزين تمامًا عن الكلام .

آه ، كم يبدو الأمر محرّضًا عندما نأخذ لوهلة معيّنة دور الأستاذية والمرشدين في الحياة ، كم تبدو النصيحة لذيذة عندما نقولها لا نسمعها ، ونرى أثرها يتزايد في الآخرين أو لا يتزايد ، عندما نعيش هذا الوهم ونخوض مع النّاس فكرة تؤلمهم قاموا بطرحها علينا ، ثم نبدأ بطرح مواقفنا من ناحية وفرض آرائنا من الناحية الأخرى ، وكأننا بهذا أصحاب مواقف نبيلة وليس لديهم ما يزعجهم ، متفرّغين فقط لتقديم المنفعة للآخرين ، بل قد تجدنا أحياناً إذا لم يكن غالبًا نحدّثهم فيما نحنُ متورّطون معهم به .

تجلٍّ

يقوّينا ؛ الألم .

تصنعنا ؛ التّجربة .

تفوّزنا ؛ الهزيمة .

تُربحنا ؛ الخسارة .

تنقلنا ؛ المحاولة .

ينبّهنا ؛ المرض .

يحضّرنا ؛ الغياب .

يعطينا ؛ الإيثار .

يسلّمنا ؛ البُعد .

يتبعنا ؛ السوء .

يريحنا ؛ الأمل .

يمتّعنا ؛ التّعب .

يشغفنا ؛ الفضول .

يملّلنا ؛ المقدور .

يكمّلنا ؛ النّقص .

ينقّصنا ؛ الكمال .

تدفعنا ؛ الرّغبة .

يحفظنا ؛ الرّحيل .

يذكّرنا ؛ النسيان .

يُتعبنا ؛ البقاء .

تبدؤنا ؛ النهاية .

**

البكاء لغة .

الإحساس مسؤولية .

الصمت موسيقى .

الحلم عقيدة .

المعرفة معلومة .

الفكرة نظرية .

الحزن تهذيب .

الضعف ثبات .

الوِحدة استقرار .

الصوت نغمة .

السعادة محطة .

الألم طريق .

الوعي صحّة .

الضمير سلوك .

المصلحة نظام .

الحب قسوة .

الحنان أمومة .

الصديق منزل .

الذاكرة خندق .

السر حديث .

التأمّل صلاة .

خلاص

أيها التعب ، استرِح
أما تعبت! ؟
أيتها السعادة : انظري
انظري إليّ ،
إنني أحزن بعمق .
أيها الشفاء : تأمّل
تأمّل ملامحي ،
إنني أتألّم بقسوَة .
أيتها الراحة : تعالي
تعالي وارقبي
إنني مُتعب!
أيها الوقت : قِف! ،
قِف وتروَّ ،
إنني أضيع .
أيها الغريب : لاحظ
لا حظ ضآلتي ،
إنه لا أحد معي!
أيها الماضي : ارحل
ارحل بعيدًا حتى يمكن أن أشفى منك .

أيها الحاضِر : تمهّل
تمهّل قليلاً كي يتسنى أن ألحق بك .
أيها القادم : اقترب
اقترب كثيرًا حدّ أن أصافحك!
أيها الهدوء ، فلتدنُ مني
إنك موسيقى جميلة
وإنني أعتبرك علاجًا للروح
بإيقاعات صمتك الأخّاذة!

المدهشون أوّلاً

الآخرون ، البعيدون ، الغرباء ،

الذين طرقوا قلوبنا ففتحناها لهم ، ثمّ أحسنّا ضيافتهم ،

القريبون جدًا ، الملتصقون بنا حذو القذة بالقذة ، السائرون بجوارنا إلى أي مكانٍ نذهب إليه ،

الساهرون طويلاً على أصواتنا ، النائمون على صمتنا وترجّينا بلا شفقة ،

المادّون أيديهم ليلمسونا ، الذين أهدونا قلوبًا ليست لنا ،

الذين وعدونا في لحظة واشية أن يكونوا آباء وأمهات ، والذين حلفوا أن يمتدوا معنا طول العمر

البارعون في الغياب ،

المغادرون حين يوهموننا بأنهم عائدون بعد قليل

الذين يوم واحد من غيابهم يعطّل سعادتنا ،

الذين ذهبوا بعيدًا ، لماذا يحرصون ، على معرفة أفعالنا في غيابهم؟!

الكثيرون جدًا ، الذين برغم زحمتهم صرنا وحيدين ، وحيدين جدًا!

الذين منحونا أيامًا من الفرح ،

هل يدركون أنهم كانوا يقدّمون لنا عمرًا من النحيب؟!

الذين أعطونا قلوبهم كالأوطانِ نسكن بداخلها ،

هل يعرفون أنهم كانوا يهيئون لنا منفىً كبيرًا؟!

الكلاميّون ، الذين قالوا رجاءاتٍ كثيرة

أين ذهب إحساس كلماتهم بعد أن غادروا؟

الذين لم يعد النّسيان كافيًا لنسيانهم ،

فصرنا نطمح عند عبورهم على الذاكرة ألا يسببوا الأذى!

الذين فقدنا ذواتنا حين ارتبطنا بهم ، ثم بعدما عدنا إلينا ؛ لم نعرف ذواتنا!

المخيفون الآن ، الغرباء جدًا ،

الذاهبون وأمننا في أيديهم ، الراحلون بعد أن دمّرونا ،

القائلون بملء أفواههم : اكرهونا!

المودعون بلا رجعة ،

الآفلون على خشية بكائنا ،

الذي جاؤوا كالعَطشى ، يستغيثون الماء وشفاههم يباس!

فلمّا سقيناهم غادروا بأملاكنا!

من يعتذر لنا من الماء؟ ومن يعيد منهم الكأس؟

الذين أعطونا قلوبهم كالأوطانِ نسكن بداخلها ،

هل يعرفون أنهم كانوا يهيئون لنا منفىً كبيرًا؟!

الكلاميّون ، الذين قالوا رجاءاتٍ كثيرة

أين ذهب إحساس كلماتهم بعد أن غادروا؟

الذين لم يعد النّسيان كافيًا لنسيانهم ،

فصرنا نطمح عند عبورهم على الذاكرة ألا يسببوا الأذى!

الذين فقدنا ذواتنا حين ارتبطنا بهم ، ثم بعدما عدنا إلينا ؛ لم نعرف ذواتنا!

المخيفون الآن ، الغرباء جدًا ،

الذاهبون وأمننا في أيديهم ، الراحلون بعد أن دمّرونا ،

القائلون بملء أفواههم : اكرهونا!

المودعون بلا رجعة ،

الآفلون على خشية بكائنا ،

الذي جاؤوا كالعَطشى ، يستغيثون الماء وشفاههم يباس!

فلمّا سقيناهم غادروا بأملاكنا!

من يعتذر لنا من الماء؟ ومن يعيد منهم الكأس؟

العاديّون

الناس الأكثر طيبة ، والناس الأقل ضراوة ، المتمايزون بين الحق والباطل ، المخطئون والصائبون ، الذين يشعرون في لحظة بالعزة وفي لحظات بالذنب ، بالحزن والسعادة ، بالحنين والأنين ، الذين يشعرون في أحايين كثيرة أنهم يعيشون لوحدهم ، وأنه لا أحد يعرفهم ، الوفيرون بوحدتهم ، والقليلون بالأصدقاء ، العائدون من الأماكن التي نذهب إليها ، المتّجهون لمواجهة حياتهم ، المتحسّرون على ما فاتهم من لحظات لم يدركوا روعتها إلا بعد مضيّهم ، المفاضلون بين الموت والحياة ، المسافرون لمدة طويلة بحثًا عن أمنياتهم ، الساخرون من أحداثٍ تحيط بهم ، الظّانون سوءاً في الحسن ، الظّانون خيراً في الشّر ، الوارثون أشياء عديدة من زمانهم ، المخالفون للقوانين ، الذين يقومون بالأفعال حين تكون ممنوعة ، ويبتعدون عنها حين تكون مسموحة ، الذين يثير فضولهم الغامض ، ويفتّشون عن شيء بداخله يتعرّفون عليه ، دائماً يحسون بخوف شديد ويتنبؤون لأي خطر قادم ، الذين يحاولون ببلادتهم مواجهة ما يحدث في العالم . النائمون ، المستيقظون ، الساهرون ، الباكون ، الضاحكون ، الخارجون والداخلون ، الذين نصادفهم أمامنا في كل مكان ، ثم لا تعجبنا صورهم ، ولا تعجبهم صورنا ، الذين يقززهم منظر بشع ، ويحاولون بطريقة مستعجلة أن يتلافوه ، المنتظرون حظوظهم ، والذين يخططون

للقيام بعمل ما ولا ينجزون منه شيئًا . الناجحون على الجهة الأخرى ، المتشابهون .

النّاس أغلبهم : أنت وأنا ، هو وهي ، هما وهنّ ، هذان وهاتان وهؤلاء .

العاديوّن : نحنُ وهم .

«حين يحاول أحد ما ؛ تشويه صورة جميلة في عينيك ؛ لأي سبب كان ، فإنك لو تفكرت في الأمر ، بصورة عميقة ، تجده يحاول تشويه مركز نقي في ذاتك» .

صوت – LXX

ثغرة الحس

الإحساس هو ما ينبغي ، وهو ما أريده ، إذا فقدت الإحساس بنفسك ، فقدت الإحساس بالآخرين ، وإذا فقدت الإحساس بالآخرين فقدت الإحساس بنفسك ، إنها عملية شاقة ومترابطة . وإذا فقدت الإحساس تمامًا ، فقدت الشعور ، فقدت الفهم ، فقدت الشفقة ، فقدت المؤازرة ، فقدت الاستجابة للأوامر ، فقدت القبول وصرت في رفضٍ تام ، إنك تشعر بالفراغ ، لا ليس الفراغ ما تشعر به ، بل تحس بخلوّ المسئولية ، لأن الإحساس مسئولية ، باللامبالاة ، باللا اهتمام .

إن هذا الشعور أو التخاطر إن صحّت التسمية ، التي نفهم من خلاله ما يقوله الآخرون قبل أن ينطقوا به ، أو نخمّن مجيئهم دون إدراكنا بأنهم قادمون ، هذا الدافع القوي ، شديد الإيجابية ، ينم عن إحساس كبير . كأن الإحساس عبارة عن لغة ، نستطيع أن نتواصل بها مع الآخرين دون المفردات . نفهم ما يقصدونه ، يخبرنا بالحقيقة عندما يتوقّفون عن قولها ، نصل إلى أعمق نقطة بدواخلهم دون البوح بها ، نستشف من خلاله قدرتنا على الترابط والتواصل معهم ، ومع الأشياء على وجه العموم ؛ لأن الإحساس هو حلقة الوصل التي تربطنا ببعض .

في بعض الأحيان نشعر بالقوّة والقسوة ، وقدرتنا على

التحمّل ، ومدى الصبر المطلق الذي نشعر به ، وفي أخرى نشعر بالضعف واللين والكسل وعدم القدرة للقبول ، لأننا لسنا إلا عبارة عن إحساس يجتاح من خلالنا ، ويجعلنا نظهر بهذه الصورة المؤقتة والموضعية ، ولا يمكن لنفس الإحساس تجاه أي شيء ، أن يستمر على درجة ثابتة إلى الدوام .

إن الألم الذي يطرأ فجأة ، ما يقودنا إلى الشعور به هو الإحساس ، الإحساس هو الذي يجعلنا نتألم وليس الألم ذاته ، تُرى لو كان الإحساس غير موجود ، هل كنا سنتألّم؟! لذلك فالطبيب حينما يستخدم المخدر ، على جسد المريض قبل الشروع في العلاج ، وإنما في الحقيقة ، يعطّل الإحساس ، أكثر من كونه يزيل الألم ، فالألم ما زال مستمرًا بنفس صرامته وربّما أشد ، إنما إحساسنا به متوقف ، حتى يتلاشى المخدر ويعود الإحساس به ، فيعود من خلاله الألم ، ومن المرهق في الألم بشكل دائم ، هو فكرة تخبرنا أنه لن ينتهي .

لا توجد طريقة مناسبة تمامًا ، لوصف إحساسٍ ما ، مهما بذلنا من جهد ، فإننا لا نستطيع أن نصف إحساسنا بشكله الدقيق ، دائماً هناك شيء ما يخفى ، يتعقّد ، ويصعب شرحه ، وإذا مات الإحساس ، يبقى الإحساس بأنه مات ، وهو شعور مرهق بالفعل ، لذلك يبدو الإحساس فيما معناه ؛ حيّ على الدوام .

ليس أكثر

شعور رائع أن تجد من يشاركك حبّ الأشياء المهمة والتافهة .
شعور رائع أن تجد اسمك في قائمة تريدها .
شعور رائع أن تخطط لأهدافك وتسعى لتحقيقها .
شعور رائع أن تعيش حياتك بأحلام تسامرها .
شعور رائع أن تحب ذاتك وكأنك شخص آخر .
شعور رائع أن تشارك الآخرين أحزانهم قبل أفراحهم .
شعور رائع أن تجد جملة تترجم حياتك .
شعور رائع أن تشعر بالقبول والرضا عن نفسك .
شعور رائع أن تمنح نفسك الفرصة لتذوق طعم المغامرة .
شعور رائع أن تجد مكالمة فائتة من أشخاص تحبهم .
شعور رائع أن تصلك رسالة جميلة بدون أسباب .
شعور رائع أن تجد من يحبك وأنت بهذا السوء .
شعور رائع أن يعتبرك الآخرون مثالاً لهم .
شعور رائع أن تتعرّف على مواطن ضعفك وتقويّها .
شعور رائع أن تقتنع بأن هناك من هم أفضل منك .
شعور رائع أن تترك أثرًا جميلاً في مكان تزوره .
شعور رائع أن تُلقي التحيّة بدل أن تردها .
شعور رائع أن تجد من يعيد ترتيبك ويكوّنك ويعطيك إيّاك .
شعور رائع أن تنتظر شيئًا في طريقه إليك .
شعور رائع أنك لا تكتشف الخطأ المقصود .

«عِدني أن تظلّ غريبي دائمًا ، فلقد خسرتُ الكثير بمجرّد أن أصبحوا أصدقائي» .

صوت - LXV

والْتهب الكلام في فمي

والفم كالمقصلة ، لم يعد يكفي لتمرّ صرخة جديدة ، محشوًا بالكلمات المجعدة ، والجمل الطويلة ، أسمعه يختنق ، وفوهته جافّة كالجحيم ، اللسان يقطع بأطرافه خاصرة الصمت ، عساه أن يفزع لنا تحت وطأة الليل ، ويخرجنا من التّعب الراكد إلى بِرَك الكلمات ، لندنو بأفواهنا ونشرب من صفوها ، لنخبر السمع أن تعال نحنُ هنا ، واقفان ، مستعدان للسفر الشاق نحو البحث عن آخر قطرة من الكلام ، متحدان ، متماسكان ، ونأمل بشجاعتنا أن نقطع مسافة البكم ، إلى درب المكيدة ، وأن نصرخ بملء أفواهنا لننقذ طائرًا يريد أن يحطّ بقدميه على الأرض ، ويهرب من فزع نخرجه ، ليرجع إلى السماء ، حيث الأرض تقيّد جناحيه ، وتسلب حرّيته ، لأن الأرض هي القفص ، وأرضه هي السماء ، ثم نفتح بابًا للحب ، هناك في البعيد ، بابًا لنغلق من خلفه وجع الذكريات ونمرح في عمر قادم ، فنتخلص من وحشة السواد الذي يجعل في العمر شرخًا إلى ملامسة الخيال الذي يخفف الرّوح كما لو أنها تستلقي على غصن ، كما لو أنها فراشة .

إيه ، أيتها الصرخة المتكدسة في فمي ، يحتجزك إحساس العزلة ، رغبتك في الخروج ، تجرح رغبتي في البقاء ، يمنعك من الخلاص ، أن فمي مغلق وصداك عالٍ ، أسمع حشرجتك بعظمة

حنجرتي ، صرخة لها أزيز المدفع ، تفزع الاستقرار ، منذ فترة لم أسمح لصيحة أن تسهر طويلاً ، وتتعارك بداخلي ، أفتح فاه الدهشة ، وأسمح لها بالانطلاق ، حيث ترتطم بما هو بعيد وقادم ، حيث تواصل وتمضي حتى تصل ، لابدّ أن تصل ، لكن حجمها الكبير يمنعها من الذهاب ، فتعلق في فمي .

إيه ، أيتها اللحظة الهاربة من شغف ما تورطت به من الماضي والعودة إلى الوراء ، تسحبني من بوابة الليل وترجفني في محطات الذاكرة ، واللحظة القادمة التي أطمح أن أعيشها ، آه! كم يرهقني أن أفكر بها . واللحظة التي بين يديّ الآن ، تعذبني وتسعدني في آن واحد ، أتمنى لو تمتد حتى آخر العمر ، حيث لا قدرة لي على مواجهة المزيد من الخيبات ، والأمنيات ، والأحلام ، والهواجس ، والتفكير . . لا تعرف ضعفي ولا تسعى لإسنادي ، اللحظات المجتمعة فوق بعضها وعلى بعضها وتحت بعضها ، المتراكمة مثل خزانة عجوز قصف بيتها في الحرب ، المبعثرة من فرط ما أشرقت عليها الشمس ومرّت من بينها الأيام ، وأنا أتمشى على طرقاتها ، بحثًا عن فسحة أزيل معها ركام العمر ، لأقف على طراوة الوقت ، مصغيًا إلى يومٍ آخر ، تستنشق منه النفس عبير الخاتمة ، مرة تلو مرّة .

إيه أيتها النجمة الشاردة في مكانٍ قصّي لا أحد يطوله ، تحدق في عالمي مثلما يحدق ذئب في فريسته ، يتبعه حيث يقف أخيرًا ، لالْتهامه ، تشقّ الجدار العازل المؤدي إلى حجرتي ، أشعر بحرارة

الضوء يسبب في المكان سخونة ، ثمة ما هو شبيه بالحيرة يدخل معها ، نجمة وحيدة وبعيدة وشاردة ومنعزلة ومنطوية ، تشبه ذاتي حين أكون ضائعًا ومتعبًا ، تجلب الحزن والدهشة ، بيننا لغة طويلة آتية من زمان مندثر ، نفهم بعضنا ، لغة الخوف والتحديق في ما هو ساكن وصلب ، سوف ينقشع من فرط ما أتأمله ، لأرى ما يختبئ خلف سكوتها .

***

إيه ، أيها الأصدقاء المحتجزون في صدري ، لا علاقة لي بكم ، لا علاقة لكم بي ، لا علاقة لي بنفسي ، ولا علاقة لنفسي بي ، لم أسمح لكم بالدخول ، لكنني تنبّهت من وجودكم ، مستعجلين بفرحة الضوء في آخر النفق ، ولا ضوء في آخر صدري ، كلّه نفق ، لم أحرمكم من الخروج ، لكنكم تحبّون المبيت ، كما يبيت الحمَام في عشّ والديه حين يجيء المساء ، لم ترتكبوا جريمة في الحياة ، لتسجنكم هكذا طويلاً ، باب الصدر مفتوح على مصراعيه ، لماذا لا تخرجون؟ ، بالخارج دفء أكبر مما تشعرون به ، لكنكم لا تعرفون عنه شيئًا ، صدري من فرط اتّساعه ، ضاق بكم ، أما آن لكم أن تخرجوا ، وتعثوا في الأرض فسادًا ، أن تذهبوا حيث تشاؤون ، أن تنطلقوا وتمارسوا حياتكم ، حياة تفصلكم عن هذا العناء الخادر؟

***

إيه أيتها الحبيبة الأخيرة تنمو على سطح قلبي ، كنبتة أنتظر منها أن تعشُب وتخضرّ ، أسقيها من قطرة الماء المتلألئة في

أعماقي ، تحبني ولا تقول ، تقول لا تحبّني ، ولا أفعل! . اركضي بأقصى سرعة نبض القلب ، حيث السباق إلى البعيد ، وسأركض بأقصى ما استطعت من اللهفة لألحق بك ، هناك في المضمار البعيد ، حيث لا أحد سوانا ولا متفرّجون ، حيث القزامة تحاصرك والطول يلازمني ، سوانا ولسنا معًا ، نسيتني في غرفتي ملقًا على السرير ، ونسيتِ أن تأتي بكِ عند منعطفٍ ما ، نحن هنا معًا ، ولسنا معًا ، نتسابق ، نلفّ المكان لمرات عديدة ، لا تعب في هذا المضمار ، لأن أجسادنا ليست معنا ، أرواحنا تتقافز مثل حبات لؤلؤ متساقطة من عقد امرأة غنيّة ، تقع على الأرض ولا يهم أن تعيدها ، ملاكان يعيشان معًا ، يمسكان بأيدي روحيهما ويلفّان مضمارًا طويلاً ، دون تعب أو حياء أو وصب ، لخطواتٍ إلى الأمام ، سأسبقك ، ثم تفصلنا عن بعضنا ثلاث خطوات ، لحظة لا يستطيع الزمان أن يكررها أو يعيدها ، لحظة هي أنقى من لحظة النقاء ، وأجمل من لحظة الجمال المحسوبة ، لحظة تفصلني عنكِ أيتها الحبيبة ثلاث خطوات من وقع الأقدام ، صدى الوقع يضج بالمكان ، تركضين بأقصى سرعة النبض ، لتلحقي بالرجل الذي لا تحبين ، ثم تندمجان ، كما يندمج الليل مع النهار ، كمنظر الغروب أو الشروق ، اثنان في واحد ، بعد تعب استمر مرارًا على مرفأ شاطئي الراسي ، فنتغلب على التعب ونتعبه ، ونهزم من انتصارنا الهزيمة ، فييأسان وتزورنا الرّاحة ، أمام لهفة الأنفاس الممزقة ، ساخرين من الدم المتدفق في شرايين الجسد مثل ماء محموم ، وأحدنا يختزل الآخر .

إيه أيتها الطاهرة كماء الوضوء ، الشامخة كظلال النخيل تحجب سخونة شمس المدينة ، ما بين قلبي وقلبك ، عالمان أو ثلاثة ، يفصلني عنك مثلما يفصل وقع أقدامنا ثلاث خطوات على حلم أبعد من مستحيل ، طريقي المستقيم يمتد منك إلي ، مني إليكَ ، لا اعوجاج فيه ، نسير عليه غير عابئين ، أحب هذا الطهر يخرج من فمك كأنه تراتيل أنشودة يلقيها الأطفال ، أحب هذا النور يشع من جبينك ، يحكي مسيرة ألف عام ، أحب هؤلاء الجنود المستعدين للقتال من فراسة صمودك ، وهذه الورود في طريقها لتزيّن عوالم البلاد من جلاء بهجتك ، لا وقت للراحة في مكان يبتعد عنك ، بهزل مسفوح نسعى لنرتب خراب العمر ، وسلامة حياتنا ، لنكتب القصيدة الأخيرة ، ونقول القصيدة الأخيرة ، يا قصيدتي الأخيرة .

باعتباري شيء آخر

رأسي نافذة ، وأفكاري طيور ،
تغادرني خِماصًا ضامرة!
ذاكرتي مريضة بالنّسيان ،
لا تستطيع العثور على لحظةٍ هانئة!
عيناي كأنهما فوهة بندقيّة ،
أحدّق بهما نحو هدفٍ لم أحدده بعد!
لبكائي دوي يوقِظ طفولتي . .
ولصوتي صرخة ، ضجيجها يطرد الأصدقاء من صدري . .
قلبي فيه ثقبٌ مكشوف ، كأنه حديقة عامّة ،
يأتيها النّاس للفُرجة
يفوح من خلاله دخان يتصاعد ،
كأنه التهاب شيئين يتّقدان ،
يتبخّر معها كلّ شيءٍ نسيتهُ في قلبي!
يداي مثلَ طريقين طويلين ، لن يلتقيا إلى الأبد .
أصابعي . .
أصابعي كأنها الرصاص ، أصوّبها لاصطياد فريسة مارّة!

أمشي ، أتباطأ ، والأرض كلّها موطئي ،
أغرس قدميّ فيهما ، كما أغرس الفسيلة
برغبة في النّمو والتقدّم
أقاوم الصعود بقدمين زلقتين
وأحس عند كلّ خطوةٍ أخطوها ،
بأن الأرض ترتبك من وقع خطواتي!
وبين فكّيّ . . آهٍ من فكّي
يوجد ما هو أخطر من أنيابي الحادة ،
توجد كلمات كالقذائف ،
موقوتة لوقتٍ ما
أسدّدها للإحاطة .

صرخة بصمتٍ واضح

شعوري مُتذبذب
صوتي مصلوب في فمي
أريد أن أصرخ ، ولكنّ الصّمت يمرّ من هنا
أريد لهذه الكلمات أن تعبر
بقدرتها على قول شيء
لتقلع اليأس المنثور في صدري .
لا أعرف كيف أبقى حانقًا لفترة طويلة؟
كيف أنسى دون أن أتألّم؟
كيف أقول أن ما حدث لم يجرحني؟
وأن أمشي بشفافيّة حتى النهاية!
أشعر بصوتي يبهَت ، وملامحي تنطفئ
أحس بعيني تزوغ ، وقلبي يتعطّل
أرى روحي تغيب ، والحياة تعود من منفى بعيد
أنتبه لشيء داخلي : يطير يحلّق يرتفع
ومعًا نقع!
أريد أن أتحرر من ذاتي
ولا أشعر بهذا الارتباط والقلق
أن أمشي في طريق طويل إلى غير المعلوم

وأغيب لعشرات الأيام
دون أن تراودني فكرة العودة!
أتلهف للخروج من هذا الجسد
والذهاب إلى مكان لا أعرفه
أطهّر نفسي من هذا الغثاء
وأخرج من التكرار العالق
ثم أعود جديدًا
مرة جديدة
إلى جسدي!

تيه

ليس ضياعًا
ولكني أحسّه
أسير بقدمين مرهقتين
أخطو ، وكأنهما مجتثتان من الأرض
لستُ هنا ، ولا هناك ،
ولا في أي مكانٍ آخر!
أحسّ بهذا الإحساس الغريب
المفرط في شعوره
البعيد عن ذاته
المتّجه نحو العدم!
فبرغم الحزن
ها أنا أضحك!
ليس هناك من أمر يمنعني من فعل كهذا!
وبرغم الألم
ها أنا قوي
ليس هناك من أحد ليُحس ؛ بغير هذا!
كقبضة الطين
مجتمع لكني مفتت!

أصبحتُ لا أدري

أين أنا؟

ومن أنا؟

أمضي مثل شيء

في طريقه ليلتقي بحتفه!

ثمّ أفيق في المنعطف

بعد أن تنشطر روحي لنصفين :

أحدهم ينتهي ؛

والآخر يبقى معي .

طريق مُوصد

كم أذهب لأكون وحيدًا!
أهرب من الآخرين
أهرب من الناس
أهرب من الأصدقاء
أهرب من حبيبتي
أهرب من ذاتي
أهرب من أفكاري
أهرب من أمسي
أهرب من مستقبلي
أهرب من يومي
ثم ألتقي بهم ؛ جميعًا
أمام ذاتي ؛
في مكان يتجمهرون فيه
لاستقبالي!

«أحبّك ، أمّا الآن ، حين أجبرَتْني الحياة أن أكرهك ، فإني أحب أن أكرهك» .

صوت - LXXIX

كل ما نحبّه،
لا يتعبنا.
إن الذي يُتعبنا،
أننا نحبّه.

الحب، في صريح العبارة، هو أن تكون لديك القدرة على إتعاس نفسك أكثر من إسعادها، حينما ننظّر مفهومًا شائكًا كالحب، فسوف نحصل على المزيد من عبارات الامتنان الرّنانة: السعادة، البهجة، الراحة... إلخ، تلك التي تطرأ في أعلى أفق المخيّلة، وهذه ليست بالضرورة أن تكون مدلولاً من مدلولات الحب، ففي بعض الأحيان على الأقل، يُعتبر الحب جريمة اقترفناها، نثق متأخرين إثر جرحٍ خادر، قادم من الماضي الذي كنا نحبّه، فنتألم مليًا بسببه، أثق تمامًا، وعلى وجهٍ كبير، بأن الحب هو الذي يدفع الإنسان للتقدم والعطاء، وما إذا توقّف شخص ما عن إسداء هذه الخدمة العظيمة لنا، التي هي الحب، فإننا سوف نتوقّف بدون إدراكنا عن التقدم، وأثق أيضًا بأننا عندما نتعلّق في شخصٍ ما، فإنما نتعلّق بـ(أنانا) الموجودة في داخله، حتى نشعر وكأنه نحن، وما إن نفقد هذه الأنا فيه، إلا ونخسره على الفور، وما يحرّكنا في غالب الأحيان ليس الحب فحسب، بل هو هذا الدافع الرهيب الذي يختلج في أغوار النفس من الداخل، ويدفعها نحو تقديم الخير وبذله، حتى لو كلّفنا هذا مزيدًا من الخسارة على الصعيد

الشخصي ، لأجل التبرير والبرهان للآخرين .

إن الحبيب المخلص ، ليس الذي يبرهن لك بأنه يستطيع أن يحبك إلى الأبد ، بل هو الذي لا يموت إحساسه بك . إن الذي يحبك لسبب ، أي سبب ، كأن يحبك لأنك إنسان رائع ؛ وتستحق . . فسوف يكرهك متى ما شعر بأنك تحولت إلى غير ذلك ، وفي الحقيقة أنت لم تتحول ، هو الذي شعر بالملل والضجر من استمرار روعتك ، من استمرار هذه الصورة التي بالأساس يحبها فيك ، فقد أصبحت بالنسبة له الآن ، شيئًا لم يعد مثيرًا .

إن مقياس المحبة الذي ينبغي أن نقيس به بين شخصين يتبادلان الحب ، هو مقدار ما يتحمّله أحدهما من الآلام في سبيل المحافظة على الآخر . يهدأ الألم لأنك تحب ، يثور آخر لأنك تحب أيضًا ، لماذا هذا التذبذب الذي نشعر به ونحنُ نحب؟! ، تعوّض خسارتك عندما تقترف الحب ، تقول لنفسك بأنني سأعوّض الخسارة الآن ، فبالحب سأغدو كاملاً ، سأنشغل بحب شيء آخر ، لأنسى ما كنتُ أحب ، ثم تكتشف شيئًا آخر ، لأن الحب ليس بالمفهوم الذي تعلّمناه أو تعرفه ، إنه أسمى من ذلك بكثير ، الحب ببساطة جليّة هو الراحة ، أن تبدو مرتاحًا ، بشكلٍ فعليًا من الداخل ، بحيث لا تعذّبك ذكرى تمر ، أو يخدشك اسم يعبر ، أو تؤلمك صورة معلّقة في رفوف الذاكرة ، فذلك هو الحب .

ليس الحب مقرونًا بالسعادة ، ولكن السعادة مقرونة بالحب ، فالسعادة هي الحب ، حينما تشعر بالسعادة ، فلا بد أنك مرتاح ،

بشكل مؤقت أو طويل ، وهذه الراحة هي الحب ، يبدو الحب فيما معناه أمرًا مرعبًا وخطيرًا ، إذا ما قورن بالراحة ، فالاضطراب الذي يحدث في السلوك ، نتيجة ردة فعلٍ ما ، مهما تعددت الوسائل ، لو عدنا خلف سببها تحديدًا ، لوجدنا أنه الحب ، وكل شيء قائم عليه ، فمثلما التقدم والنجاح يسبّبه الحب ، كذلك الفشل والهزيمة ، وما هو أسوأ من ذلك ، وأكثر تدميرًا ، ليس الأذى العذب الذي نشعر به عند قيام المحبوب بتعذيبنا ، بل بمنحنا الحب ثم مصادرته ، فهناك من يستمتعون بهذا العذاب الناتج دون إحساسهم بنفاد مكامن قوّتهم إلا متأخرين .

عندما نحب ؛ يستحيل أن ننسى ، نحب بالشكل الصادق والمؤذي ، لذلك ما كان النّسيان إلا أكذوبة نستخف به ذاكراتنا لنخفف أثر ما نشعر به ، يتسرب لكن أثره يبقى طويلاً وممتدًا بدواخلنا ، الضغينة والكره اللتان يخلفهما الحب لا يأتيان من العدم ، تظل المشاعر السلبية تكبر دون استشعارنا بها ، ولا نحسهما إلا بعد زواله ، نتيجة حبٍ في غير محلّه ، أو اعتقاد في موضع خاطئ ، وهذا الشعور الذي نحسه الآن فور الانتهاء ، هو ما يربطنا بالحب ويعقّد مسألة النسيان .

وبصفة عامة ، فإن المرء لا يتوقف عن الحب ، علاقتنا به دائمة ، ونظل مستمرين في تقديمه دون إدراك ، ومستمرين في أخذه دون طلب ، وهذه التعبيرات التي نقدمها للأشخاص والجمادات والحياة ، إنما هي عبارات حب ، حتى هذه النظرة التي نلقيها في

السماء حين نتأمّل طائرًا يرفرف بجناحيه دون شعورنا بالأذى ، ليست إلا نظرة عن حب . لذلك كان الحب عظيمًا على الدوام ، وما يجعله كذلك ، هو اعتقادنا بأنه لن ينتهي .

لم يتبيّن مثلها شيء

مخلوقة مثل أي أم
دافئة مثل أي أم
قادرة وحنونة وعظيمة
لو تأملتها
لوجدتها أكثر من ذلك .
فيها من الوقار
ما تشك أنك في محرابْ
ولها من الرّحمة
ما تحلف على غيرها لما تُصاب!
تهطل
كما لو أنها غيمة
فيرتوي جدبُ القلب!
تصعد ،
كما لو أنها دعوة
قد استجاب لها الرّب!

حين أحزن ، تبكي هي
وحين أفرح ، تسعد هي

الفرق بين أمّي والأحبابْ!
كما الفرق بين
الذّهاب والإيابْ ،
إنها تتمنّى أن تحمل
عنّي عذابي ،
بينما هم يتمنّون
ألا يروني في عذابْ!

«لماذا صدرك يضيق؟

-لأن حبّك يتسع» .

صوت - XLIII

تعهّد

ربما كان سيصير هذا اليوم شيئا رائعًا لو أنك كنتِ هنا
ربما كانت ستقودنا أفكارنا لنصل إلى سعادة لم نكن نتوقعها ،
ربّما كنا سنحوّل حزنينا إلى لحظة سعيدة ودائمة ،
وربما كنت سأكشف لك عن سرٍ دفين!

لو تعرفين . .

كم من الوقت أقضيه في مراقبتك كلّ يوم؟ كم من الأسئلة أطرحها أمام نفسي تحتاج إجابتك؟ كم من الصّمت أهملته مستعدًا للانتباه إليك؟ كم من الكلام تجاوزته رغبةً في الحديث معك؟ كم من العزلة عشتها متأملاً في الجلوس بقربك؟ كم من حزن ذقته عائمًا في الابتعاد عنك؟ كم من البرد كابدته من فرط الحنين ليديك؟ كم من الأشجار ماتت من قطع السقاية في غيابك؟ كم من ربيع تأخر يرجو عودتك؟ كم من الأصوات بُحّت من النداء عليك؟ كم من الموت زارني ليأخذني منك؟ كم من الأصدقاء خسرتهم في انتظارك؟ كم من البهجة غادرتني حين ذهابك؟ وكم من (الآن) أسرفتها دون أن يأتيني شيء منك؟ .

***

لأنكِ شيء . والحب شيء . وحبّكِ شيء . وأن أحبك شيء آخر . .

هي الأسباب ذاتها لا تجعلني أقوم بعملِ شيء ؛ دائماً أكتشف أني بدأت في شيءٍ ما بلا سبب . فبلا سبب أنتظرك ؛ وبلا سبب أحبّك ؛ وبلا سبب أكتب إليك . . .

أعترف ؛ بأنني أحبك ، لقد حاولت مراتٍ عديدة أن أنساك لكنني فشلت ، كنت أحاول أن أتخلّص منك ، كمن يريد أن ينتحر ، لكنه أيقن متأخرًا أن الحياة أجمل من الموت ، آسف ، لأني هش ، لستُ صلدًا كما يجب للاستناد ، لستُ مرِنًا كما ينبغي لأختبئ ، آسف ، لأني هزيل ، ومتعب ، وبائس ، ويائس ، وأفكّر ، وأخاطِر ، وموجوع ، وضعيف ، وما زلت أحبك . كالماء ؛ أنت من ضرورة الحياة . كالحياة ، أنت ضرورة للنّاس . كالنّاس ؛ أنت ضرورة للأصدقاء . كالأصدقاء ؛ أنت ضرورة للحب . وكالحبّ ؛ أنت ضرورة لي ، أحب حياتي حين أراك ؛ أحب السهر حين أبقى معك ؛ أحب الحلم حين يأتي بك ؛ أحب الناس حين تكوني معهم ؛ أحب الليل حين يأسرني فيك ؛ وأحب الوقت حين يمضي بجوارك . اطمئنّي ؛ إني أحب أن تكوني كذلك ؛ إذا أغمضتِ عينيك فتأكدي أني أحبك ؛ ثمّ حاولي أن نلتقي هناك ؛ وإذا لمستِ قلبك ؛ فصافحيني بداخله ؛ لقد تأخّر الوقت كثيرًا حتى جاء بك .

بعفوية عجيبة ، أحببتك ؛ لم أرغب في شعور كهذا ؛ ولكنّ ما حدث كان غريبًا ؛ أصبح قلبي الفارغ من كلّ شيء معلّق بك ؛

ثمّ بدأ شيء كبير يقودني ؛ إنه حبك . بالتدريج ، بدأت أفقد ارتباطي بذاتي وأرتبط بك ، شيئًا فشيئًا ، حتى سيطر حبك عليّ ، ثم فقدتُ ذاتي تمامًا ، حتى أصبحت اليوم غريبًا ومذعنًا إليك ، ثمّ وأستمر في تذكّرك ، دون انقطاع ، لحظة بلحظة ، يومًا بيوم ، صباح مساء ، كأنك من وظائف القلب ، يتدفّق حتى اليوم وينبض ، بصورة في غاية الدهشة . لأنك تمنحيني شعورًا جيدًا ، هناك شيءٌ من الدفء يكمن في اطمئنانك ، إنكِ تحرّريني من الداخل ، من هذه المخاوف والضرورات ، وكمحفّز أواجه بك الحياة ، ولأنني أرغب في الطموح والتّحدي ، بجوارك ، وسرعان ما تتحوّل هذه الرغبة إلى شيء من الذعر القاتل ، عندما لا أتحسس وجودك للنظر والتصفيق والتّشجيع والتقدّم . ففي كل مرّة تغيبين ، ينقص يومٌ من عمري ، ويزداد يومٌ من حصيلة البؤس في حياة إنسان كان من الممكن أن تكون سعادته زائدة بقربك ، إنك لن تشعري بألمي كما أشعر به ، لكنك لمجرّد أن تبقي هنا ، فإنه يختفي ، لا أعلم كيف ، لكنه يختفي ، ثمّ بطريقة قاسية ، عندما تذهبين ؛ يعود . . يعود ، وإنك لن تشعري بسعادتي كما أشعر بها حين تكونين بالقرب ، لكنني لمجرد أن أشعر بك هنا ، فإنها تتّسع ، لا أعرف كيف ، لكنها تتّسع ، ثم بطريقة غليظة ، عندما تستأذنين ، أختنق . . أختنق . وحدكِ بالتلاؤم مع صوتك ؛ من يستطيعان مصافحة قلبي ؛ تعتريكما الأناة والسكينة ، إنكما كثيفان ومرهفان ، ومملوآن بالحنان ، إنكما مثل ضرورة ينبغي أن تكون معي على الدوام .

أعرف بأن هناك من يرغب الآن برؤيتك واحتضانك ، من يريد أن يتحدث معك ويطمئن عليك ، من يحبك أقل مني وربما أكثر ، لكنك لن تجدي من يفعل بنفسه مثلما أفعل . من يخفي عليك ، أن أحد أسبابه للسعادة ، هو أن يأخذ بعض حزنك . من يشعر أنه بحاجة ليبقى وحيدًا ، حين يدرك جيدًا أنه بحاجة ليبقى معك . من حين يغضب منك ، يقرّر بأنه سوف يتركك إلى الأبد ، الأبد المؤقت ، ذاك الذي يعتريه قليلاً ؛ كما لو أنه أبد الأمّهات ، حين يغضبن من أبنائهن ، ثمّ ما إن ينتهي الأبد ، إلا وعاد إليك . من يكتب ؛ لأنك الفكرة ، ويمحو ؛ لأنك الغياب . من يسهر ؛ لأنك المستيقظة ، وينام ؛ لأنك الأحلام ، من يحزن ، لأنك المتألّة ، ويفرح ؛ لأنك الأسباب . من يشعر بألم في قلبه ؛ ويكبر لأن صوتك مرّ عليه ، من يرتبك وحيداً ، ولطالما أخطأ ونادى الناس باسمك ، من يشكو من بطنه بلا سبب ، غير أنه شعر بك .

دعوة

أيتها البعيدة ؛
والقريبة من شخص آخر
أيتها الحاضرة في الذاكرة
والموجودة عند آخرين!
أيتها المشغولة في شيء ما
«أفكر بك الآن»
تطرئين على بالي ، مثل فكرة معزولة!
وأنتظرك بلا فائدة
مثل شخص يحاصره الرجاء
بعد فوات الأوان
أيّتها المثمرة :
صدري مدينة جافة
نسيتْ رائحة المطر
أما حان موعد هطولك؟
كالقداسة ، يتجدد نسيانك يومًا بيوم
أتذكّرك ، فأنساك ، ثمّ أتذكّرك ، فأنساك
ثم أتذكّرك ، فأنسى أن أنساك .
أجلس كل مساء قُبالة الوقت

بظمأ الصحراء ، أنتظر سحابة حضورك ،
كان المكان مُشعًا بنورٍ يتهلل
من ذكرى يسرّبها غيابك .
أسمعك : تنادين عليّ
فأجيبك ، بتلبية المحتاجين
أنا هنا!
ألتفت ناحية الصوت ، ولا أراك!
أهمس لكِ دائمًا ، كلّ مساء
هل تسمعين؟
«ونحنُ لسنا معًا ، هل تشعرين أنّنا معًا»؟

الأولى، والتي تليها، والأخيرة

جميلة وفائقة ،
وملائمة كي تكون بهذا الجمال
هادئة كالنّسمة ، منسابة كالنّهر ، متدفّقة كالعاطفة
تمحو بنظرتها ، الذنب ،
وما تدرك أنها تفسد عليّ النّساء!

عيناها ، مطلع الشفاء ،
يختزلني عند رؤيتها إحساس العوَض
تمرّ ، فيستسقي القلب
تأفل ، فيجفّ!
ثَمّ نورها ، حيثما تكون ، أُولّي شطرَه
قِبلة البعيدين!
أراها ،
فتتحوّل الكلمات إلى قصيدة ،
يستميل الشموخ ليصافح أثر الخُطى
تترك الصواب ؛ عمدًا يلاحقها
وأنا كالخطأ ، أحاول تصحيح ما بعثرته اللهفة!

كالنبع ، ممتدّة لا تنضب ،
تسقي بصوتها جدب الحزن ،
فيبتلّ العطش!
كالغدير ، ساكنة وهادئة ،
تشبه الماء في احتياجها ،
لا ينسى أن يشربه أحد!
كنسيم الشروق ، قلّما أحتاط منه
بازغة كالصباح الباكر
أحببتها بلا جهد!
وضّاءة ، لا تحتاج إلى نور ؛ لتُرى ،
خالدة ، لا ينقّصها الغياب!

شَطْري هي ،
ممتزجان ببعض مثل حلقة لا تنفصل
قريبان من بعض يحسبنا البعيد واحدًا
حميميان كمصافحة طويلة
كأنّها الستر وأنا الخطيئة!

حين تقول : أحبك
أزداد جمالاً
أولد مرة ثانية من جديد

يتلبّسني إحساس بملامسة الغيم
كالمطر يهطل في الخارج
بعدما يعمّ الجفاف
وأنا أهطل في مقولها المزهر
مثل زهرة عباد الشّمس
تبدأ تتفتح ،
حين يتوقف هطول المطر
وأبدأ بالنموّ ، حين تنهمر
بالغزارة ذاتها!

لمجرد أن أنظر إليها
يفوتني الكثير من الوقت
صوتها ينساب كشلال
نظرتها دافئة كالحرير
إنني حين أتأمّلها
«أشهد ألا إله إلا الله»!

«ولا شكّ بأن السكينة ستهبط في الروح ، لن ينوس القلب بعدها ويضطرب ، ستُذهِب الطّمأنينة تعبًا طويلاً ، وستنقشع الغيمة السوداء ، ويصفو المنظر»

صوت - LX

هدنة

مرّة أخرى، من جديد، يا صاحبي، المَجد، لمن يريد أن يظلّ وحيدًا، داخل ذاته، دون الاتكال على الآخر، دون الحاجة إليه أو إلى حبّه. المجد، هو أن تحب ذاتك، تحبّها كأنك تحبّ آخر، الوحدة لا تخيفني، ولا تمرضني أبدًا، إذ إنني لا أبدو إلا كما أكون عليه، إن ما يخيفني ويقلقني هم الناس، الناس يجبرونني أن أكون كما يريدون. اليوم شعرتُ بوحدتي، أحسستُ بالحزن في غرف الانتظار التي لا يجلس فيها أحدٌ، سمعت استياء المسمار الوحيد المثبّت على الجدار دون أن يمسك شيئًا، وتعرّفت لماذا يكون البرواز هادئًا على الحائط بهذا الشكل؟ ولماذا يعلّقه الناس في مجالسهم؟ اليوم لم يصاحبني أحد، لم يرن هاتفي، لم أجد مكالمات فائتة، لم تصلني إشعارات جديدة، لم تفقدني حبيبتي، لم يتذكرني صديقي، لم تصلني رسائل تجارية عن آخر العروض والتخفيضات، لم يقترح الوقت للتعرف على أشخاصٍ جُدد، لم يقل أن هناك أشخاصًا يشبهونني، لم تطرأ فكرة جديدة في مخيلتي، لم يفزعني متهوّر في طريقي، لم يأت الشيطان ويفسد صلاتي، لم أجد زحامًا في المقهى الذي أزوره دائمًا، لم يتغيّر طعم الحبق في كأسي، لم أودّع أحدًا، لم أستقبل أيضًا، لم أجد تائهًا في الممرات المزدحمة، لم أرَ من يتوق لشيءٍ قديم، لم أقرأ خبرًا يجلب الامتعاض، لم تمرّ

نسمة وتمنحني السعادة ، لم أشعر بأني أطمع لشيء ما ، لم أمنح ذاتي فرصة الأمنيات ، لم أحتدم مع سوء الماضي ، ولم أحرص على معرفة الوقت حتى هذه اللحظة ، ما زال كل شيء كما ودّعته ، لم يتغيّر ، الريح الباردة تعبر على الأسقف والسطوح بخفّة رهيبة ، وحيدًا ، أسير في مكانٍ ما مع امرأة لم ألتقِ بها ولا أعرفها ، أرجّ مخيّلتي وأصنع منها مشهدًا جميلاً ، ثمّ أهديه لي ، كنتُ وما زلت أفعل ذلك عندما أحتاج إلى استخراج لحظة تسرّني ، أتعامل مع الذّاكرة كما يتعامل البائع مع زبائنه ، حين يريد لبعض السلع القديمة أن تنفد ، بأكذوبة بالغة يمتدح تلك القطعة ويرّغبهم بها ، هكذا ، أحاول جليًا أن ألتقط الصورة المناسبة بهذه الطريقة الممجوجة ، أو أبتدعها ، فمرة أنجح ومرة أخفق . في مكانٍ تركت ابتسامةً عريضة ، كان المغزى من فعلة كهذه حسنًا ، أن يمر أحد البائسين ليجدها ، تخيل أن تمضي في طريق وتجد ابتسامة ملقاة بجانبه ، لشخص ما ، لا تعرف عنه شيئًا! ، سوى أنك وجدت ابتسامته على الطّريق! ، أليس فعلاً نبيلاً ، لقد تركتها في أحد الأماكن التي زرتها بحزنٍ شديد ، على تربة جافّة ومرتفعة قليلاً عن سطح الأرض ، كالتّل . ثمّ سرتُ منه حتى وصلت إلى مكانٍ لا أتذكّره الآن ، لكنني وصلتُ إليه في ذلك الوقت ، بصحبة من يستطيع أن يجيد صنع اللحظات الجميلة في مخيّلتي .

أشعر برغبة في قول شيء ، هو كلّ شيء على الإطلاق ، بالمعنى الرّوحي ، كلمة واحدة على الأقل ، يخرج معها كل ما أود

قوله ، أغنّي في صمت داخل أحشائي ، هناك كتبت العديد من القصائد التي ألحّنها في ممرات أسير فيها وحيدًا ، لن يكون بالإمكان وصف ما أشعر به في قصيدة ، لكنني صرتُ أسمح للصمت أن يتحوّل إلى كلمات يلقيها من طرف فمي ، غدًا سوف تُزهر الحياة وتعشب الرّوض ، غير أن غدًا بعيدٌ جدًا ، وهذه اللحظة هي كل ما أملكه وأستحقه من مخزون الدنيا ، لماذا عليّ أن أعيش في انتظار دائم؟! لماذا لا يحدث ما أريده لمجرّد أنني تمنّيته؟ أليس سببًا مقنعًا لحدوثه؟! . الغد هو لشخصٍ آخر ، لم يكن لي أبدًا ، أليس شيئًا مضحكًا أن أهرب من حاضري إلى البعيد ، أن أفتّش في الذاكرة عن مكانٍ أختبئ فيه من صخب الحاضر وهلع الغد؟! ، لكنها حيلة لا بأس بها ، تخيّل لو أن هذه اللعبة لم تكن لتطرأ على بال أحد ، كيف يمكنه أن يخدع نفسه؟! سيعيش لحظته في خذلانٍ يهيم به على وجهه ، يترنّح بداخلها ، ليس معه أن يعود أو يتقدّم ، فيعلَق على خيطٍ يتمادى به طويلاً ، يمزّقه جموح اللحظة إلى قطع متعددة ليس لها مستقر . من منا الذي لم يخدع نفسه في أيام بؤسه بحيلة لها ثقبٌ ضيّق يحشر نفسه من خلاله؟ بحيث تمكّنه أن ينفد بذاكرته من وشوشةٍ تحيط به؟!

الحقّ يا صاحبي ، أنني أعني ما يخصّني فقط ، وأعاني منه ، ليس لي شأن في الآخرين ، إن مجرّد التفكير في ذاتي يتعبني إلى حد كبير ، وليست لديّ القدرة في إقحامهم معي حتى ولو على سبيل التفكير مثلاً ، إن المعاناة التي أطرحها أمام ذاتي تفوق المعاناة

التي أقضيها في سبيل إيجاد حلٍ مناسب لمعاناتهم أو معاناتي معهم ، حتى هذه اللحظة ، وعند كتابة هذا السطر ، لا أعرف ماذا أريده تحديدًا؟ والسبب في كوني أستهل وأسترسل في الحديث ، بسيط وجلي وواضح ، وهو أنني لا أعرفه ، لا أعرف أين قرأت مثل هذه العبارة المناسبة والتي تليق بذكرها الآن : «إذا وجدت شخصًا يتكلّم كثيرًا فذلك لأنه لم يجد ما يقوله» ، غير أنها قد تكون فكرة مناسبة أيضًا ، أنني أكتب الآن لأنني لم أجد ذلك الشيء المراد وبحاجة للحصول عليه ، أدور حول الحمى على وشك الوقوع فيه . النّدم يا صاحبي ، النّدم ، هو أيضًا يتعبني إلى حد كبير ، دعني أدخل من هذه المفردة الصغيرة جدًا ، أنا إنسان نادم ، حتى على أتفه الأشياء التي يتجاهلها الآخرون ، حين أمعن في النّظر ، يلفّ حول رأسي سرب من الطيور ، وكأنني كائن محكوم عليه بالندم ، حتى على صعيد الخير ، حين أقدّمه أكتشف أنني وضعته في مكانٍ خاطئ ، غير أني قد وضعته على كل حال ، يخيّل إليّ أحياناً أنني لا أريد الانتماء إلى أي شيء ، فكرة الانتماء تسبب لي هاجسًا مدويًا ، لا إلى ذاتي أيضًا ، الارتباط الذي أشعر به في يومي الأقل من عادي ، يعبرني بثقلٍ رهيب ، ذات مرة داهمتني فكرة وأقلقتني كثيرًا ، فكرة سيطرت عليّ تمامًا ، فكرة تافهة وتعيسة ، لكنها استطاعت أن تربطني بها وتتعسني معها ، انظُر إلى أي مدى هي هزالة الإنسان ، وما الذي باستطاعته أن يقدمه لنفسه حين يريد الفرار من شيء ما ، يتكبّل ، يتقيّد ، يتنهّد كالخائفين ، ويتنقل

بكآبة متواصلة تبث في داخله شعور الرّهبة ، ومع أنني أبدو غير مهتم بشيء على شكل يتراءى للآخرين ، إلا أنني أضعف مما تتصور وأبسط مما تعتقد وأجبن مما تظن .

لماذا الشرّ يخص والخير يعمّ؟ لماذا حين نفعل شيئًا سيئًا يلحق أناسًا أبرياء لا علاقة لهم بفعلتنا تلك؟ لماذا علمونا مرارًا بأن تفاحة واحدة تفسد الصندوق بأكمله؟ ، لماذا لا تكون تفاحة واحدة تُصلحه؟ ، لماذا يزرعون في عقولنا أن الصالح ركيكٌ إلى هذا الحد؟! ، أخبرونا أن للجدران آذانًا ، فصدّقنا ، وصرنا نلطم على أفواه الذين يومئون بالحقيقة ، وننهر من يحاول أن يقولها ، وصارت الكذبة هي الشائعة ، لم يعد متاحًا على كل واحدٍ منا أن يلقي الضوء على الخطأ ثم يحاول تقويمه وتقييمه ، لقد أصبح الخطأ مستقيمًا من فرط ما ظل متعربدًا ، له صورة التنكّر في ثوب الحق ، حتى برزت له أنياب ، ينهش بها كبد الحقيقة .

يا صاحبي ، وإن كنت تسمعني ، إن ما يطمئن الروح هو أن الإيمان يصبّ في الجسد كما يصبّ النهر في مجراه ، لكَم إنه إحساس آمن يفوق الوصف أتنقّل به في طريقٍ لا نهائي ، حين أؤمن بالقضاء والقدر ، دون استدلالات واستشهادات ، لا شيء يحدث عبثًا ، ما يحدث فإنما حدث لأنها حانت لحظته ، دائماً هناك أسباب تخفى وراء الأسباب ، وكل ما لا يحدث وراءه سبب جعله كذلك ، يشير إلى شيء ما ، ما نراه ليس عبثًا ، حين يمر من أمامنا دون أن نبالي به ، فإنه يرمز إلى فكرةٍ ما .

في الأفق هناك برزت صورة خافتة لها مظهر شروق الشمس ، أستمد منها أفكاري العظيمة ، صورة كالدواء ، تنبعث من أعماقي في طاقة كامنة تدفعني للانطلاق والبحث ، فعند ما هو غريب ، إحساس يقودني إلى الدهشة ، يأخذني إلى الصورة الملائكية التي أتخيّلها عالقة فيه ، دون أخطاء أو رتوش ، يقودني المجهول إلى التحرّي عن أسبابه الما ورائية ، حتى أصل إلى قناعة أحاول من خلالها ملاطفة ما وصلت إليه ، أو التوافق معه ، بصورة تمكّنني من الاستيعاب للرّضا والفهم . إن الحقيقة التي نصل إليها ، بجهدنا ومعرفتنا ، لا تعدو عن كونها آخر ما وصلنا إليه ، وليست الحقيقة المطلقة ، وبرأيي أن كل حقيقة مطلقة لا يمكن أن نصل إليها ، ما دمنا نستخدم هذه الوسائل الناقصة ، لنبرهن فقط ونثبت لذواتنا ونعزز لفكرتنا أنها الحقيقة التي يجب معرفتها ، لقد نشأ التعقيد نتيجة الفهم الخاطئ ، لذلك كان الفهم أهم من المعرفة ، الفهم يا صاحبي ، ثم الفهم ثم الفهم ثم المعرفة ثم أي شيء آخر ، فإذا استطعت على سبيل المثال أن تفهم «لماذا أعرف؟» ، فإنك سوف تفهم وتعرف على الفور ، لأن الفهم يقود إلى المعرفة ، والمعرفة تقود إلى الرّضا ، والرّضا يقود إلى القناعة ، والقناعة تقود إلى الراحة ، والراحة تقود إلى السعادة ، وهذا كل ما في الأمر .

الكثير من البهجة ، تتطلّب الكثير من الحزن ، الحزن الدّفين يا رفيقي ، ذاك الذي ينقشع من أغوار النّفس كالتذلل له ، لا يمكنك أن تعثر على السعادة قبل الحزن ، لا يُمكنك أن تعثر على ما هو

سهلٌ في متناول أيدي الآخرين قبل أن تيأس منه ، أيّ معنىً يتسلّح هذا! . أمرّ ، بخفّة اللهب ، على ألف مصادفة ممكنة ، كان لابدّ لها أن تكون في يوم قادم لي ، أهيّئ للخدعة أن تدوم أكثر من اللازم ، أزيّنها بالتماثيل التي تعطيني فرصة للمسايرة على ضفاف الطريق حتى الوصول إلى ما هو حتمي وينتظرني ، ثمّ بحركة بهلوانية في ظرف إغماضة ، ينقلب كل شيء رأسًا على عقب ، حيث فُرصة التحمّل بلغت ذروتها ، أستقبل ما يحدث بابتسامة عريضة ، لها وقع النغز في قلبي ، تؤثث دمارًا يهوي ، وتبدّل بقدرتها ليلاً ضئيلاً ، إلى صبح مشع ، أقهر الحاضر بهذه الصورة ، أبتسم ، بمذاق السخرية ، أجعل الوقت يتصدّع حتى يستاء وييأس ويغادر ، وحين تتغير المناظر ، أنطلق ، بنفس الخفة السابقة ، إلى حزن يسبقني ، يعضّ بأسنانه كتف سعادتي ، حتى تتصدّع منه السلامة .

ألم غائر ، في جنوب العالم ، أحسّه ينمو في قلبي ، أعبّر عنه بكلماتي الملتهبة ، وكلما أفشيتُ بعضًا منها أحرقتني ، كان ما يدهشني منذ الزمان هي القوة التي أحظى بها ويحظى بها كل من يشعر بألم ، كانت القوة التي يضغطني بها الألم تدهشني ، وكنتُ أواجهها بالقوّة ذاتها ، كنتُ أختفي من شدة الشعور ، أعيش سائر الأيام في عزلة عن الناس ، يعتقد المثابرون أنني في خَلوة مع النفس ، بينما أنا في خلوة مع ألمي ، ويحسبني الغرباء مصدر السعادة ، يعرف الأصدقاء معنى حزني ، يتأمل فيّ البعض فألهم

الحسن ، ويحذّر مني أولئك الذين جرحتهم . كنت أنسكب كالماء ، وأجري كالنّهر ، وأتمدد كالخوف ، وأبرق كالنجوم ، وأسطع كالشمس ، وأطول كالسفر ، وأتجدد كالأيام ، وأطرأ كالأفكار ؛ وأختفي كما السابق إذا اشتدّ حزني . إن ما يربكني أن أكون نافذة يطير معها كل شيء ، أو يشكّل عبوري هاجسًا لطفل يجلس على عتبة بيتهم وحيدًا ، يرجمني بالحصى ، ثمّ يهرب دون أن يسمع تحيّتي . لستُ أدري يا عزيزي ، هل يشعر الناس بالسأم؟ هل يقدمون صبرهم على واقع مريرٍ كما أفعل؟ إنّ السعادة بمنظرها الخلاب تشخص أمامي ، غيرً أنّ نيّتها تهمّ بالمغادرة .

وهكذا ، كنتُ ومازالت ، أواجه نفسي بنفسي ، في شؤون صغيرة أو كبيرة ، بجهدٍ جهيد ، لا أنفك من المشاجرة ، حتى أنتقل إلى أخرى ، تلهيني عن مشاجرة قديمة ، لقد اعتدت أن أكون ذاتي ، مستعدًا للخوض في نزال مع المكتوب ، راضيًا بما يحدث ، لا أجزع ولا أتردد ، وأنسى آخر مرة فعلتُ فيها عملاً مهذبًا ، حين يبلغ بي القنوط مبلغه يا ضنيني ، أستشف منه ضوءً طفيفًا ، أقتات عليه وقتًا طويلاً ، ثمّ أجد عزائي ينمو منه الأمل ، وأعرف بأن اليأس والأمل شيئان يسيران معًا ، مترابطان ببعضهما ، وأن الإنسان لا يرجو الأمل إلا باليأس ، ثمّ أصرخ في وجه الخيبة لتنتشر ، ويظل صمتي ثائرًا ، أصغي إليه في سكون تام ، أتيح له أن يبقى لفترة طويلة متماسكًا في صبره ، لم أعتد أن أوقظ هدوءه ، إنه يبقيني مشدوهًا في نُواحه ، العودة لن تحدث ، ولكنّ السباق قائم ، يؤسفني الوقت الذي أهدرته

في الالتفات للوراء ، كم من الوقت ضاع على هذه الشاكلة ، أحاول الجري إلى الأمام دون وصب ، الجري حتى التعب ، والبدء من حيث توقفت ، مرة ، مرتين ، أو أكثر ، حتى أصيب الهدف كما ينبغي أن يكون ، فلطالما قررت مسبقًا الذهاب إلى حيث لا أعلم ؛ هناك سوف أجد شيئًا جميلاً لا أعرفه وأتعرّف عليه ، ولكنني حتى الآن لم أصل ، ولم أجد شيئا يستحق أن أعرفه .

يوميًا يا صاحبي ، بإلحاح شديد ، أطالب بيوم جديد ، أبدأ بالبحث عن مناسبة جميلة أقضيها ، لابد لهذا اليوم الجديد أن يكون يومًا جميلاً ، أخاله كذلك ، استيقظت فيه باكرًا ، قلتُ لنفسي : «إن الاستيقاظ المبكّر يمنحك نشاطًا جيدًا ، وإحساسًا مفْعمًا بالحركة ، فالناس يسرحون ويمرحون من الآن ، والأرزاق تبدأ من الصباحات ، ومن كان صباحه جميلاً فعادة لا يقل مساؤه عن ذلك» ، دائماً ما تعترينى الرغبة في الخروج ، والاتصال بالحياة والآخرين والجمادات ، الكشف عن احتمالٍ بالخارج أكثر من الداخل ، التخطيط لفعل شيء ما يتناسب تمامًا مع هذه اللحظة الجديدة ، التي سأسعى جاهدًا للشعور بها ، لمنحها كثافة سعيدة ، حتى تستطيع منحي سعادة مطلقة ، البحث عن عادة أبتدعها لأكررها في يوم قادم يزورني فيه الحزن ، أقوم بما يجب ، بعيدًا عن الشكوك والحذر ، أهيّئ لنفسي مكانًا مناسبًا في هذا اليوم ، إنه يومي ، وما دمتُ حتى هذه اللحظة قادرًا على التنفّس ومدّ قدماي وكأنني للتو استيقظتُ من نومة طويلة ، فعلّي أن أعيشه وكأنه آخر

يوم في حياتي .

دائمًا ، أستيقظ بهذا الإحساس المليء بالرّغبة والشغف ، سأثق فيه غير سابقه من الأيام ، سأعيشه كما يعيش الأطفال لحظاتهم ، حتى وإن كانت مليئة بالبكاء ، إنهم يستمتعون بهذه اللحظة التي ينكّدون فيها على والديهم ، سأعود طفلاً ليوم واحد فقط ، أما الذين لا يستطيعون أن يعودوا أطفالاً ، فعليهم أن يبحثوا عن عيش يومهم بطريقة ملتوية ، طريقة تمنحهم اليسير من البهجة .

وأيًا يكن هذا اليوم ، فسأقطع ساعاته كأنني أؤدي عبادة ، لن أسمح لوخز الضمير أن ينغزني ، لن أرضى من موقف أن يعكّر صفو مزاجي ، لن أقبل بأي نوع من الألم أن يأتي ويلطّخ بياض هذا اليوم . قريبًا ، لن يعرفني أحدٌ ، سيزول الألم ، وينكسر هذا القيد ، سأبدو نائيًا كنجمة بعيدة ؛ سأعود شخصًا آخر ، أعبر مع الطريق بعد أن ينطفئ حزني ، قريبًا ؛ سأصوغ مفهومًا جديدًا ، سأكتب كلمة جميلة ، سأقطف وردة وأهديها لمن لا يستحق ، سأبتسم في وجه الأعداء ، وأمنحهم فرصة للوم ، سأختار أغنية مدهشة وأكرر سماعها ، سأترك أثرًا رائعًا يدوم لفترات متتالية ، سأسمح للذات أن تقبّل ذاتها وأن لا تضع خطًا أحمر لسعادتها ، سأقرأ قصيدة طويلة عن الحب ، سأمنح حبيبتي نصًا تحفظه عن ظهر قلب ، سأتخلّص من البؤس والبؤساء ، سأصلّي كثيرًا وأدعو الله أن تمطر السماء ، سأقهر التعب بأنني في راحة طويلة ، سأواصل الرّكض ، وسأخبر العالم بأني سعيد ، وسأحتفل بالحياة .

ملْحمة

مثلي الآن!
لا أشبه أحدًا
يغمرني شعور متهالك
يحطّم الخطوة التي قررت قفزها بعد قليل
يعيدني للحظة موجعة!
كأنّي تلويحة وداع ودمعة على جفن
كأني وجهان متقابلان بلا عناق
كأني سلامٌ بارد ونصيحة مُستعجلة
كأني لحظة أخيرة لشخصين يفترقان!
أشعرُ أني أكثر من شخص
مجموعة من الأصدقاء يجلسون مع بعضهم
وكلّ واحدٍ منهم مشغولٌ بنفسه!
أرتّب ملامحي ، فتتبعثر مع غروب الشّمس
أصل متأخرًا ، فأتفاجأ أنه لم يأتِ غيري!
تزورني السعادة ، حين أكون نائمًا!
أمشي على هذا الموّال ؛
«كل يوم أترنّح ،
لا أعرف هل أنا خائف ؛ أم أشعر بالخوف؟

أجلس في ركن غرفتي
أتكوّر على نفسي مثل قط جائع
أنظر إلى ملامحي كشخص مهترئ
أحاول معرفتي أكثر
من أنا؟ وكيف أكون؟
وفجأة أقف ، مثل شيء تعطّل
أستمع إلى صمتي كأني أتوجّس
أحاول أن أستخدمني كما ينبغي
أشعر أني أترمّد ببطء
مثل سيجارة مشتعلة!

وهكذا

لا حزن بي
ولكني أشعر به
لستُ حزينًا
ولا أبحث عن السعادة
في داخلي قناعة عظيمة
تجعلني أتصالح مع ذاتي
أريد أن أبقى هكذا
بشعور لامثيل له
ولا يبحث عن شيء!
كل متعة تحدث معي
تأتي ناقصة
لا شيء ينتهي
ونحن مستمتعون به!
إنه ينتهي ؛ لأنا نريده
لا شيء يبقى للأخير
لا شيء مطلقا!
لم أعد أشعر بجسدي
مات قلبي من فرط الإدراك

ماتت جوارحي
وأجزاء الحس في بدني
فلستُ إلا هذه الصورة
تشخص بهذا الشكل!
أوّاه من ذاك الليل
ليل العودة لروحي
الطريق الصحيح الذي أسلكه
الهناء حين يأتي أخيرًا
بعد بؤسٍ طويل!
أوّاه!

«في ليل قديم ، يشبه هذا
من مكان جميل ، كهذا . .
في وقت شبه متأخر ، مثل هذا . .
كانت تغمرني السعادة»

صوت - LXXII

ما تبقى قبل نفاد الوقت

I

لهذا ، تعرف أمي طريقة مناسبة ، لتُبهجنا بالحياة ، لا تكلّف نفسها عناء الخَلق ، تّتصل بالسماء عندما يكون خط الأرض مشغولاً ، ترفع يديها ناحية الأعلى ؛ وتدعو ، ثمّ تنظر إلينا وتبتسم ، ولسببٍ ما نفرح ، ولسببٍ ما ، نشعرُ بالسعادة ، كان الصّباح في عالمها مبشرًا بالخير ، تشرق الشمس من مكانها الأبدي لتستيقظ الكائنات ، ثمة ما يوازي في هيئتها حين تضيء ، أنّ الظلام يجب أن يرحل ، ثم بعد فترة من الزمان شعرنا بأننا قد كبرنا ، حينما استيقظنا على صوت المنبّه دون أن تأتي وتوقظنا .

II

لهذا ، وجدتُ نفسي في لحظةٍ تشبه الإغماءة ، كنت من فرط الشعور بوحدتي ، غارقاً في ذاتي ، كأنما العالم في سماحٍ أبدي ، وكأن قدرتي على الحب لا حدود لها ، لم تكن الحياة في قاموسي مرّة واحدة ، بل مرّاتٍ متعددة ، وكل لحظة في مضمونها تشكّل لي حياة جديدة ، تنقلني من شعور إلى آخر ، تجدد علاقتي بها حين يتطلب الأمر ، كنتُ كلّما أحببتُ أن أرى العالم ، أغمضتُ عينيّ ، ثمّ حدّقت به ، كنتُ أكتشف أشياء جمّة تبهرني ، لكنني لم أكن

أعرف كيف أستخرجها بشكلٍ دائم ، لقد كنت أريده إلى الأبد ، ما لا أستطيع أن أحصل عليه ، وحين يستمر الألم طويلاً ، أدرك بأنها الرغبة التي تدفعني للتقدّم ، لم أكن أحب أن أبقى شاهقًا وثابتًا ، لقد كانت الشجرة تحزنني ؛ لأنها لا تستطيع أن تنحني ، إنه نوعٌ من الخسارة أن تكون شامخًا إلى هذا الحد ، الحد الذي لا يجعلك تنحني لالتقاط حظٍ سقط منك .

III

لهذا ، لم يكن مهمًا تحقيق أحلامي ، لقد كان ما يهمني وما زال ، أنني أستطيع أن أحلم ، ولم يعد يهمّني أن تكون حياتي بسعادة متواصلة وأزليّة ، بالقدر الذي يهمّني أن أعيش تلك اللحظات بكامل سعادتي ، فما حاجتي إلى السعادة ؛ حين يكون قلبي في مكان آخر؟! . ولم تكن الحياة بعرضها متوقّفة على أحد ؛ غير أنها في بعض الأحيان لا تسير كما ينبغي بدونه .

IV

لهذا السبب ، لم تكن الأبواب المفتوحة تثير رغبتي للدخول ؛ إنها سائبة! ، إن ما يثيرني هو الباب المغلق ، الذي يحتاج للطَّرق ، فإما أن يفتح لي وأدخل ، وإما أن يفتح لي ويرفض ، وإما لا يجيبني أحد! ، ولقد كانت الخطيئة التي أقترفها ، هي أني لم أغلق بابي في وجه أحد ، ولم أكن أشعر بالخوف عندما أكون وحيدًا ، لقد

كنتُ أشعر بالسعادة لأنني أريد أن أبقى وحيدًا ، إن من يشعر بالحزن والخوف ، هو الذي يبقى وحيدًا رغمًا عنه . ثم تتكاثر الأسئلة حين لا أعثر على إجابة ، وحين لم تكن أجوبتي تتناسق مع السؤال ، أهيّئ لنفسي جوابًا لا أفقهه ، جوابًا أقدّمه على أيّة حال .

V

لهذا السبب ، كنتُ أكتبُ أشياء جديدة ، فأشطبها ، أكتبها مرة أخرى ، ثم أشطبها مرة أخرى ، أعيد صياغتها ، وبشكل ما ، لا تعجبني ، فأشطبها أيضًا ، ثم أكتبها كآخر مرة ، أغلق مسودتي ، وأتجاهلها ، فأنشغل بشيء آخر ، كنت من فرط هروبي أنشغل بترتيب بعثرتي في الذاكرة ، مرة بعد مرّة حتى انتهيت ، ثم بدأت ، ثم انتهيت ، ثم بدأت مرة أخرى ، ثم انتهيت ، ثم بدأت من جديد . يا للجمال ، إنني أشرع في كل مرة بشيء جديد ، بعد أن أنتهي .

VI

قال لي بحزن ذات مرة ، غريب في حلم قديم : «استمرّا . . إن صداقتكما نادرة ؛ كيف استطعتما أن تكونا معًا كل هذه المدة ؛ أتمنّى ألاّ تكونا كالآخرين» . وحين أفقت وجدتُني كالآخرين ، لا أصدقاء! ، ثم عرّج على فكرة أخافتني حين قال قبل أن أستيقظ :

«هل تعرف ما الذي تقوله الجمادات والحيوانات حينما نمر من أمامها؟ ، لو كنت تعي ما الذي تقوله لأصابتك الدّهشة ، لماذا تعتقد أنه لوحدنا من يصيبه التقزز والنفور والملل؟!» . ومن بعدها بدأت أتأثر بشكل لا مباشر ، من الأشياء عديمة الإحساس ، أو تلك التي لا تشكّل لأي واحدٍ بالنسبة لنا أهمية كبيرة ، من هذا الحائط مثلاً الذي حتى الآن لم يقل شيئًا ، لهذا كان حزني يثيره منظرُ الليل والصباح عندما يفترقان ، إنها لحظتهما الوحيدة للعناق بدفء ، كنتُ أتأملهما بصفاء ، يلتقيانِ بحميميّة ، ويبتعدان بأسى .

VII

لهذا كان خوفي لا يزيحه السؤال : لماذا أنت خائف؟ ، بل كان يفاقمه ، كنتُ أستند على الحائط مثل غصن مائل ، وأشعر به يمتص بعضًا من هلعي ، أنتظر أحدًا يأتي قبل استسلامي ، وخصوصًا حين تبدو المعركة بالنسبة لي مرهقة وكبيرة ، ولا أملك تجاهها أية حيلة ، حتى تتحوّل بقدرة حيلة لا أملكها إلى أن تصبح لا شيء ، لا صغيرة ولا كبيرة ، لا شيء ، كان ثمّة سبب في داخلي يمنعني من المجيء أو التحرّك ، سبب يشبه اللهفة أو الغرور أو حتى التكبّر ، يجبرني أن أبقى وأنتظر بلا قيود ، دون أن أبيّن للآخرين حجم خسارتي .

VIII

لهذا ، كنت أحب أن أنظر إلي من خلال شخص آخر ، أتفرّس صولاتي ، كنت أستخدم الآخرين مثل طريق أمرّ من عليه حتى أصل إلى ذاتي ، لقد كان يغريني النظر إليهم ، ويفزعني التأمّل ، حتى لكأنني أرى ملامحهم بعض ملامحي ، لم أكن أريد منهم سوى أن أجد في الأخير ذاتي ، وحين أرجوهم قليلاً ، لم أكن أطلب منهم سوى يدٍ حانية ، وكلمة لطيفة . لقد كنتُ أهدي سعادتي لمن يمنحوني حزنهم ، كان الحب الذي تجرعته طويلاً ، مرهقًا ومسكوبًا ، لذلك لن ينسى ولن يتسرّب ، لقد ترك ثقبًا في القلب ينظر الجرح من خلاله ، قالوا لي قديمًا ، بأن الحب الذي يفتح في القلب ثقبًا ، يخرج معه ، ولكن حبّي حينما جاء ليخرج ، سدّ الثقب . لذلك كنت أتمعّن وأتروّى وأنتظر ، هناك بلا شكّ سببٌ سخيف يجعلني أتألم ، ولكنه مقنع وحقيقي بالنّسبة لي ، وها أنا أشعر به .

IX

لهذا السبب ، يتفاجأ الناس ، لقد كانوا يؤولون شخصيتي استنادًا على ما يريدونه فيّ ، وليس ما أكونه بالفعل ، عليهم أن يقبلوني بعيوبي ؛ أولئك الذين قبلوني لأني لا أملك عيوبًا ، قد خُذلوا كثيرًا ، أنني في أغلب الأحيان ، لا أظهر لهم إلا ما أخفيه ، كان صوتي حينما أرفعه إثر حديث ساخن ، يظنون بأنني غاضب ، مع أنني كنت متحمّسًا لفكرتهم ، لقد كان من الإيذاء ؛ أنهم

يعتقدون بي دائماً ما لم أفكّر به ، لذلك ما زلت أحذر الطيبين كما أحذر الأشرار ، شديدي الإغواء بطيبتهم ، يستطيعون أخذ ما يشاؤون بطريقة في غاية اللطف ، لأن الخبيث بإمكانه أن يكون طيّبًا طوال الوقت ، بل على قدر أكبر من الطيب ذاته ، وهذا هو الأمر الأشد خبثًا . لقد كان البشر قساة منذ القديم ؛ لا يؤتمنون على شيء ؛ جرب مخطئًا أن تأكل من حقهم ، سوف يأكلونك ؛ جرب أن توافقهم مذعنًا على شيء ؛ سوف يرضون عنك ؛ إنهم يحبون أنفسهم قبل كل شيء .

X

لهذا السبب ، كانت الحسنة تمحو السيّئة ، حين تكون من بعدها ، لكن السيّئة ما كانت لتمّحي ، لو أنها هي الأخيرة ، ثم إني قد وصلت إلى مرحلة متأخرة من المطاف ، حيث أطلب من الآخرين أن يكفوني شرّهم ؛ ويحتفظوا بخيرهم لأنفسهم ، ولم أعد بجد لأطلب منهم أكثر من ذلك ، أو أكثر من الخير الذي يتظاهرون به ويظهرونه أمامي في وجوههم ، فقد اكتفيت من شرور نفسي الكثيرة ، ومن التعبير عنها حين تدور بداخلي ، حتى نفِد التعبير ، غير أن ما يدور بداخلي من شرور ، مازالت كما هي .

XI

لهذا السبب ، كانت الكلمة أثمن من المال ، كنت كلما ملكتُ كلمة جميلة ، غرستها في قلوب الناس ، لقد كانت الكلمة الجميلة كالنبتة الطيبة ، أينما أغرسها ؛ تنبت لي زرعًا طيبًا ، كنتُ أغرسها بإخلاص وتأنّ وضمير ، لأن الكلمات الجميلة قد تجرحني ؛ إذا قيلت بصورة سيئة ، وقد تغادرني إذا كان إحساسها مزيّفًا ، بعد أن يغادر أصحابها .

X

لهذا السبب ، لم يكن ذنب أحد ، لقد كان ذنبي ، دامت الخدعة في أرشيف ذاكرتي أكثر من غيرها ، كنت أحسن الظن بالآخرين وأثق بهم ، مع أنه كان يجب أن أحسن الظن ، دون الوثوق بهم ، كان الذي يرديني هو حسن ظني ، لطالما اكتشفتُ بأنني زرعتُ حسن ظنّ في غير محلّه ، لقد كنت أحب ، بصورة صحيحة ، الشخص الخاطئ ، وأحب ، بصورة خاطئة ، الشخص الصحيح ، وذلك لأنه قلّما أحب ، بصورة صحيحة ، الشخص الصحيح ، لقد كنتُ أتعاطى شعوري مثلما يكون ، وما يؤذيني هو عدم قدرتي على التعامل معه كما ينبغي .

XI

مراحل التشكيل :

لا شيء ،

ثم شيء ،

ثم شيء ما ،

ثم شيء عادي ،

ثم شيء مهم ،

ثم شيء خاص ،

ثم شيء ، أي شيء

ثم لا شيء مطلقًا!

XII

لهذا ، كانت تغريني مرونة الطريق ، دون الالتفات لعقباته ، كنت أسير عليه نحو هدفٍ لم أحدده ، هناك سوف أكتشف شيئًا جديدًا لا أعرفه وأتعرّف عليه ، كان الطريق المؤدي إلى المجهول ، أجمل من الطريق المؤدي إلى شيء لا أرغبه ، كنت أمرّ على أماكن هادئة لا أعرفها ، ولا أجرؤ أن أذهب إليها ، لقد تعلمت دائمًا ، أنه من حقّ المكان الذي ليس فيه أحد ؛ أن يبقى شاغرًا ؛ متمثلاً في هدوئه ووحدته ، - لماذا نظن دائماً أنه ينتظرنا؟! ، لاشكّ أنه لأحدٍ ما ، غادره وسوف يعود إليه بعد قليل ، مثلما تركتُ مكانًا كنتُ به قبل قليل .

XIII

لهذا ، كنتُ مدينًا للإخفاق ، للمرات التي فشلتُ بها في حياتي أكثر من تلك التي تجاوزتها ، كانت كل لحظة من تلك اللحظات تعلّمني درسًا مهمًا في الفلاح والانتصار ، فقد تعلمت من كل مرة كيف أخفف عني عناء السقوط ومجاوزته في المرات القادمة . إن كل ما كان لا يمكنني إصلاحه كنت أسعى جاهدًا إلى مجاوزته ، وحين لا أستطيع أن أرجع كما السابق ، فإنني أسعى لأن أعود أفضل مما كنت .

XIV

يا يومًا سعيدًا قادمًا ،
بيني وبينه آلاف اللحظات ،
من بعيد أراه يدنو ؛
آت . .
أتحسّس وصوله ،
أتأمّل لحظته الجميلة وهي تبرق بخفّة الضوء ،
وأنتظره ، كمن ينتظر مفاجأة .
هلمّ ، واقترب ،
ها أنا فردتُ يديّ
باستعداد لاستقبالك
يقينًا ستمحو بمجيئك
وارِف حزني .

XV

لهذا ، كان جل ما أريده غالب الأحيان ، كما الآن ، هو العودة للوراء ، للمنعطف الذي انحدرتُ معه ، للتقاطع الذي سارت حياتي من بعده على هذا الظاهر المفتعل ، لأنحني نحو المنعطف الآخر ، أتردد معه وأجرّبه ، أخالُ الرّضا عن الذات ، ربّما كنت سأحصل عليه ، مع قناعتي التامّة ، بهذا المنعطف الذي سلكته ، حين اختاره لي دافعًا أقوى من رَغبتي ، ثمّ أسترجع في داخلي شريط الافتراضات التي كانت من الممكن أن تحدث ، أمشي بشفافية حتى النّهاية ، أكتشف ما غاب عن ناظري حتى اللحظة ، ما هو الحدث الذي كان في الجهة الأخرى ، وعلى الأقل ، في الأخير ، أكون قد أظهرتُ لنفسي الطرق جميعها ، وليس بإمكان الضّمير آنذاك ، أن يتحسّر ويتلهّف . لكنني ، وبصورة لا بأس بها ، أشكر هذا الخافي ، الذي لا أعرفه ، ولا يمكنني معرفته بمجرّد أنني أريده ، فهناك الكثير من الأشياء ، الخافية والمحجوبة عن العيان ، التي تثير بداخلي ، مكامن الجمال ، لأنها مجهولة .

XVI

الإنسان الذي تريده الآن ، وليس معك ، يجلس بجوار شخص آخر . والإنسان الذي يجلس بجوارك ، يفتقده شخصٌ آخر . كلّ إنسان ، مشغول بإنسان ، مشغول بإنسان أو بشيء آخر . يحب من لا يحبّه ، ليحب شخصًا ، قد وقع بحب شخص آخر .

ينتظر شخصًا ، ينتظر شخصًا آخر ، ينتظرهُ شخصٌ آخر . ينسى من يتذكّره ، ليتذكّر شخصًا ، يتذكّره شخصٌ آخر . يؤمن بذاته ، عن طريق إيمانه بشخصٍ ، يؤمن بذات شخصٍ آخر . يتقفّى أثرًا ، وفي مخيّلته أنه أثر شخص ما ، فإذا هو لشخصٍ آخر . يسمع صوتًا ، هو الصّوت الذي يحبّه ، فإذا هو صوتٌ يشبه صوتًا آخر . يفعل الخير ، في سبيل الابتعاد عن الشرّ ، ليصادف شرًا من نوعٍ آخر . يهرب عن الأشياء التي لا يريدها ؛ ليلتقي بها في مكانٍ آخر . في البدء ، يطمح لشيء ، يقول ما هو بحاجةٍ إليه ، يسعى في سبيل الحصول عليه ، ثمّ في الأخير ، يحصل على شيء ، لا علاقة له بما طمح إليه أو قاله أو احتاج له ، شيء آخر .

XVII

لهذا ، كانت سيّئاتي كثيرة ، لدي من الذنوب قدرًا لا بأس به ، لكنني أحب الخير والأخيار ، وأكره الشرّ والأشرار ، أبحث عن السلام والمحبّة دائمًا ، حتى في سبيل دفع الشر وليس في سبيل المحبّة حقًا ، كل من أحبه يشكّل بمثابة جزءاً مهمًا مني ، وكل من أحبه في سبيل دفع الشرور يشكّل بمثابة طريقة أراوغ بها سيّئات هؤلاء الأشخاص ، لدي صديق نصحني في أحد الأيام بنصيحة لم أعرف كيف أطبقها بشكل صحيح حتى اليوم ، أخبرني أنه ينبغي أن أكون كالقطّة ، لم أعرف جيدًا ما الذي كان يرمز إليه حينما قال هذه النصيحة ، «يجب أن تكون كالقطّة» ولماذا اختار

القطة تحديدًا ، لكنني اكتشفت بعد ذلك بأن القطة في عالمه حيوان أليف ومخادع ، لا يثق بأي أحد ، لا يأتي لأي شخص ولا يذهب مع أي شخص ، يحب من يألفهم ويألفونه ، أما أولئك الأنذال ، الذين تظهر عليهم علامات الشرور ، فإنه يهرب عنهم ، يتّجه مباشرة إلى الحاوية القريبة منه حينما يعترضونه ، لأنه يعرف حجم الأمان بداخلها . هل توجد مهزلة أكبر من هذه؟!

XVIII

بصورةٍ ما ، الخالد بين الأمس ، والماضي . اليوم ، والحاضر . المستقبل ، والغد . هو الماضي ، الأمس ، الذي ينتهي يبقى خالدًا ، خالدًا في الذاكرة ، الذاكرة هي الحياة الأبدية ، الذي ينتهي من يمر عليها ، لكنها تبدأ بتخليده بعد ذلك ، إلى الأبد .

كل حاضر نعيشه اليوم ، هو في صفحة الغد ، ليس إلا صورة من الأمس .

XIX

«لا أحد»

هو الـ أحد ، لأي أحد .

«لا أحد» ؛

هو صديقي الذي سيكون برفقتي!

هو الذي سيسامرني هذا المساء .

دائماً يكون معي هذا اللا أحد

أصطحبه إلى أيّ مكانٍ أذهب إليه ،
لا أعرفه ، ولا أعرف أين هو ، وكيف هو؟
ومن هو ، وماذا يفعل؟
وهل هو مفقود أم موجود؟
كثيرًا ما أفكر به هذا اللاأحد
مثل شيء أهتمّ به . .
ودائمًا ما يطرأ على بالي ،
كلما أحببت أن يكون معي أحدًا!

XX

لهذا . .
تذكّر جيدًا ،
وأنت تسعى لتحافظ على شيء ما ،
ولا تحبّ أن تخسره ، بأنك ستخسره!
وبأني أحب أن أخسر
ما لن أستطيع أن أحافظ عليه ،
لأني أحب أن أبقى ،
هكذا : رابحًا اللاشيء ،
وليس لديّ ما أخسره!

XCIX

لعلّ الأمر ، هكذا ينبغي أن يكون .

الفهرس

إفصاح	6
صفقة	8
15 مايو 2013	13
ما أراه يخالف ما أعرفه	18
لَوْثة	21
جدوى	27
كل شيء يبدأ بك	31
وشاية	36
مرة تلو مرة	38
تأمل المأساة	41
مسلسل	74
كاد وأوشك	50
عائق	52
تضرّع	53
اذهب إلى الله	57
فلننهض نصلّي الآن	60
المرآة تخبئ الحقيقة	65

دروس في الخطأ	67
لا شيء يزول	71
نُبوءة	75
انعتاق	80
1980-2015	82
حين يصبح محذورًا	85
ما قلّ يفي بالغرض	92
الوصول إلى الداخل	93
نسيتُ أن أبقى طفلاً	97
حظ	102
محاولة التصويب بعد فوات الأوان	103
آخر ما يمكن أن يقال	105
مونولوج القلب والعقل	107
مونولوج الضعف والقوة والهزيمة	110
مونولوج النزاع	111
مونولوج الآخر	114
مونولوج السلام	115
مونولوج الحرية	117
مونولوج اللغة	118

61-217 121
تجوال 127
معنى أن تختلي بذاتك 129
متماثل مع البيئة 133
الأبيض ليس لونًا 137
المسافة بين الرمح والطعنة 139
ما يمثّل دورًا مهمًا 140
ما تفقده ، يبقى معك 143
بينيّات 146
عِبء العدم 149
عبور 154
فكرة تحولت إلى صداع 157
حيلة مقنعة 161
تجلٍّ 163
خلاص 166
المدهشون 168
العاديّون 170
ثغرة الحِس 173
ليس أكثر 175

والْتهب الكلام في فمي	177
باعتباري شيء آخر	182
صرخة بصمتٍ واضح	184
تيه	186
طريق مُوصد	188
ما نحبّه لا يتعبنا	191
لم يتبيّن مثلها شيء	195
تعهّد	199
دعوة	203
الأولى والأخيرة	205
هدنة	209
ملْحمة	219
وهكذا	221
ما تبقى قبل نفاد الوقت	225

حين رأيتُ صوتي

لهذا، وجدتُ نفسيَ في لحظةٍ تشبه الإغماءة، كنت من فرط الشعور بوحدتي، غارق في ذاتي، كأنما العالم في سماح أبدي، وكأن قدرتي على الحب لا حدود لها، لم تكن الحياة في قاموسي مرّة واحدة، بل مرّاتٍ متعددة، وكل لحظة في مضمونها تشكّل لي حياة جديدة، تنقلني من شعور إلى آخر، تجدد علاقتي بها حين يتطلب الأمر، كنتُ كلّما أحببتُ أن أرى العالم، أغمضتُ عينيّ، ثمّ حدّقت به، كنتُ أكتشف أشياء جمّة تبهرني، لكنني لم أكن أعرف كيف أستخرجها بشكل دائم، لقد كنت أريده إلى الأبد، ما لا أستطيع أن أحصّل عليه، وحين يستمر الألم طويلًا، أدرك بأنها الرغبة التي تدفعني للتقدّم، لم أكن أحب أن أبقى شاهقًا وثابتًا، لقد كانت الشجرة تحزنني؛ لأنها لا تستطيع أن تنحني، إنه نوعٌ من الخسارة أن تكون شامخًا إلى هذا الحد، الحد الذي لا يجعلك تنحني لالتقاط حظٍ سقط منك.

رشاد حسن

978-6031-01-7291-7

تصميم الغلاف: رفعة العجمي